أجاثا كريستي

القضايا الغامضة

دار النجمة للنشر والتوزيع

القضايا الغامضة

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

القضايا الغامِضة

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

ندوة الثلاثاء

جلس الضيوف في القاعة الأنيقة يتسامرون بشتّى الأحاديث عن كثب من الآنسة ماربل، السيدة المُسنّة ذات الوجه السمح، التي كانت تتابع أحاديثهم متفكّهة وهي منهمكة في شغل الإبرة بدقة يحسدها عليها من هنّ أصغر منها سناً.

كان الضيوف هم ريموند ويست ابن أخيها الصحفي الشاب، وصديقته جويس الفنانة المشهورة، والسير هنري مدير الشرطة السابق، والدكتور بندار القسّ العجوز، وباتريك المحامي المعروف. كان الحديث يدور حول القضايا الجنائية الغامضة التي حيّرَت الشرطة وهل يجدي في كشف غوامضها الأسلوب البوليسي وحده أم أنه لا بدّ من الاعتماد على الأساليب الحديثة مثل علم النفس وسعة الخيال والمواهب الذاتية في التحليل والاستنتاج والخبرة بالطباع البشرية، إلى غير ذلك من العناصر التي يُستعان بها في العصر الحديث.

وفي النهاية فاجأتهم جويس باقتراحها الطريف قائلة: ما رأيكم -ونحن نمثل مجموعة متكاملة- أن نشكّل ندوة لنا نسميها باسم هذه الليلة، «ندوة الثلاثاء»؟ وأقترحُ أن تُعقَد هذه الندوة أسبوعياً على أن يتقدم كلّ عضو فيها بقضية غامضة يعرفها ويعرف حلها بالطبع.

وعندما لقيت هذه الفكرة موافقتهم بالإجماع قالت جويس: مَن يكون البادئ الآن؟

فقال الدكتور بندر القس: لن نجد أفضل من السير هنري الذي كان شخصية بارزة في شرطة اسكتلانديارد.

فابتسم مدير الشرطة السابق مغلوباً على أمره وبدأ يقول: توجد تلك القضية التي ربما قرأتم عنها في الصحف منذ عام مضى. ووقائعُ هذه القضية غاية في البساطة؛ فأبطالها ثلاثة أشخاص جلسوا حول مائدة العشاء الذي كان مؤلَّفاً من جراد البحر المعلَّب، وفي أثناء الليل أُصيب ثلاثتهم بنوبة مفاجئة، واستُدعي الطبيب لإسعافهم، فتماثل اثنان منهم للشفاء ومات الثالث. وقد اعتُبرت الوفاة نتيجة لتسمّم غذائي، وحُرّرت شهادة الوفاة بهذا المضمون وتمّ دفن الضحية في النهاية، ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد.

وهنا أومأت الآنسة ماربل برأسها قائلة: دارت أقاويل بالطبع؛ فالشائعات تقترن عادة بمثل هذه القضايا.

- هذا صحيح. والآن سأصف لكم أبطال المأساة، وسوف أسمّي الزوج باسم السيد جونز، وزوجته باسم السيدة جونز، ومرافقة الزوجة باسم الآنسة كلارك. كان جونز مندوباً متجولاً لأحد مصانع الأدوية، وكان رجلاً وسيماً في نحو الأربعين من عمره، أما زوجته فكانت امرأة عادية تكبره بخمسة أعوام، وكانت مرافقة الزوجة في الستين من عمرها، ولكنها كانت امرأة قوية البنية بشوشة حلوة اللسان.

المهم أن تعقيدات الموقف بدأت بصورة غريبة؛ فقد أمضى جونز الليلة السابقة للحادث في أحد فنادق مدينة برمنغهام، وتصادف أن الخادمة المشرفة على حجرته قامت

بعد سفره بتغيير النشّافة الموجودة فوق مكتب صغير بالحجرة وراحت تتسلى بقراءة رسالة كان قد حررها قبل سفره وبقيَت بعض عباراتها مطبوعة على النشّافة مستعينة في عملها ذاك بمرآة. وبعد أيام نشرت الصحف خبر حادثة وفاة السيدة جونز نتيجة لتناول جراد البحر المعلَّب، فنقلت الخادمة إلى زملائها الكلمات التي فكّت رموزَها عن النشافة، وكان الكلمات التي تبيّنتها هي: اعتمادي الكامل على زوجتي... عندما تموت فسوف... مئات وآلاف...

ولعلكم تذكرون قضية نُشرت تفصيلاتها منذ عهد قريب لزوجة سمّمها زوجها، ولذلك فسرعان ما التهب خيال الخادمة حتى اعتقدت من قراءة كلمات الرسالة أن السيد جونز قد دبّر قتل زوجته لكي يرث مئات وألوف الجنيهات. تصادف في الوقت نفسه أن إحدى خادمات الفندق كان لها أقارب يقيمون في البلدة الصغيرة التي تقيم فيها أسرة جونز، فكتبت لهم الخادمة بما عرفته من زميلتها، وردّوا عليها برسالة تبيّن أن السيد جونز كان يتودّد إلى ابنة طبيب البلدة، وهي فتاة حسناء في الثالثة والثلاثين من عمرها. وسرعان ما انتشرت الشائعات وراحت الشكاوى تنهال على وزارة الداخلية والرسائل الخالية من الإمضاء تتوارد على إدارة شرطة اسكتلانديارد، وكلها تتّهم السيد جونز بقتل زوجته.

ورغم أن دوائر الشرطة اعتبرت ذلك كله من قبيل الشائعات التي تكثر في أمثال تلك الدوائر دون أن تستند إلى أساس ثابت، إلاّ أن أمراً صدر باستخراج الجثة وتشريحها. ومن عجب أن النتيجة أتت عكس توقعات الدوائر الرسمية؛ فقد تبيّن أن

الوفاة حدثت نتيجة التسمم بمادة الزرنيخ! وكان على شرطة اسكتلانديارد وإدارة الشرطة المحلّية المختصة معرفة كيفية دسّ السم للزوجة ومعرفة الفاعل.

طبيعيّ أن تتجه الشبهة إلى الزوج؛ فقد استفاد من موت امرأته، إن لم يكن بميراث المئات والآلاف التي تصورَتها خادمة الفندق، فبمبلغ قدره ثمانية آلاف جنيه على الأقل. ولم تكُن له موارد خاصّة سوى مرتبه، وكان ينفق بإسراف ويميل إلى صحبة النساء. وكان علينا أن نتحرى عن علاقته بابنة طبيب البلدة، ولكن ثبت لنا أنه -رغم ما كان بينهما من صداقة قوية- قد دبّ الفتور إلى تلك العلاقة فجأة ولم يشاهدهما أحد منذ شهرين سابقَين على الحادث.

وقد دهش الطبيب ذاته لنتيجة التشريح، فقد استُدعي في نحو منتصف الليل فوجد الثلاثة في حالة سيئة، فأرسل إلى صيدليته يطلب موافاته بأقراص أفيون لتسكين الآلام التي كانوا يشعرون بها، ورغم كل جهوده فقد قضت الزوجة نحبها، ولكنه لم يشكّ لحظة في حدوث شيء غير عادي، وكان مقتنعاً بأن الوفاة وقعت نتيجة نوع من التسمّم الغذائي.

كان الطعام تلك الليلة مؤلَّفاً من جراد البحر المعلَّب مع السلطة والخبز والجبن وكعكة الفواكه، ومن سوء الحظ أن شيئاً لم يتخلف من جراد البحر؛ فقد أتوا عليه عن آخره وتخلصوا من العلبة. وقد استجوب الطبيب الوصيفة الحسناء غلاديس لينش، فوجدها في حالة يُرثى لها من الاضطراب والجزع، ولكنها أكدت مراراً وتكراراً أن العلبة لم يكن فيها أيّ أثر للصدأ، وأن جراد البحر بدا لها في حالة جيدة تماماً.

تلك هي الحقائق التي كان علينا أن نسير في التحقيق على هُداها، وإذا كان جونز هو الذي دسّ الزرنيخ غدراً وخلسة فقد كان من الواضح أنه لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك في أيّ نوع من أنواع الطعام التي تناولوها في العشاء لأن الثلاثة أكلوا منه. ثم هناك نقطة أخرى، وهي أن جونز عاد تلك الليلة من رحلته إلى برمنغهام في الوقت الذي كان يقدَّم فيه طعام العشاء، وهكذا لم تكن أمامه فرصة للعبث بالطعام مسبقاً.

وهنا سألت جويس مدير شرطة اسكتلانديارد السابق: وماذا عن مرافقة الزوجة، المرأة القوية البنية ذات الوجه البشوش واللسان الحلو؟

فأومأ السير هنري قائلاً: أؤكد لك أننا لم نهمل الآنسة كلارك، لكن بدا من المشكوك فيه أن يكون لها أيّ دافع لارتكاب الجريمة؛ فالقتيلة لم تترك لها أي شيء في وصيتها، وكانت نتيجة موت مخدومتها أنها ذهبت تبحث عن عمل جديد.

فقالت متأملة: يبدو أن هذا يخرجها من دائرة الاتهام.

فاستطرد السير هنري قائلاً: ثم إن أحد مفتشي الشرطة التابعين لي لم يلبث أن اكتشف مسألة ذات مغزى، فقد نزل جونز بعد العشاء إلى المطبخ في تلك الليلة وطلب من غلاديس لينش إعداد قدح من شراب دقيق القمح لامرأته التي شعرت بشيء من الغثيان، وقد انتظر في المطبخ حتى أعدّت غلاديس الشراب وحمله بنفسه إلى غرفة زوجته، وقد بدا أن هذا وحده يكفي لتوجيه التهمة إليه.

فقال المحامي: ولماذا لم تقبضوا عليه؟ لقد توفر الدافع

والفرصة، وكونه مندوباً لشركة أدوية يجعل السموم في متناول يده.

فابتسم السير هنري ابتسامة باهتة قائلاً: هذا هو الجانب القبيح في القضية. لم نقبض على جونز لأن الآنسة كلارك قررت في التحقيق أنها هي التي شربت قدح شراب دقيق القمح عن آخره وليس السيدة جونز، فقد ذكرت المرافقة أنها ذهبت إلى غرفة السيدة جونز فوجدتها في الفراش وبجانبها قدح الشراب دون أن تمسّه، وقد طلبت منها أن تشربه بدلاً منها لأنها غيّرَت رأيها لشعورها بالغثيان وعدم رغبتها في تناول أيّ شيء آخر بعد الوجبة الدسمة، فشربت الآنسة كلارك القدح رغم التزامها ببرنامج للنحافة.

ثم تنهّد وعاد يقول مكملاً: وهكذا ترون أن هذه النقطة بالذات هدمت الاتهام بالنسبة للزوج. وعندما سُئل جونز عن العبارات التي وُجدت على نشّافة الورق في غرفته بالفندق كان رده حاضراً؛ فقد قال إن الرسالة التي كتبها في الفندق كانت ردّاً على رسالة من أخ له في أستراليا طلب منه مساعدة مالية، فردّ عليه يقول إنه يعتمد تماماً على امرأته، وعندما تموت امرأته يصبح مالها من نصيبه، وعندئذ يمكنه مساعدة أخيه إذا أمكن. وقد أعرب له عن أسفه لعدم إمكانه تقديم المساعدة المطلوبة، ولكنه وجّه نظره إلى أن الدنيا فيها مئات من الناس وآلاف يعانون من مثل ضائقته المالية. وهكذا تهاوت القضية كلها، فلم يكن لنا أن نخاطر بالقبض على جونز لعدم ثبوت التهمة ضده.

واختم السير هنري قصته قائلاً: هذه هي القضية كما تمثلَت في العام الماضي، وحلها الصحيح بين أيدي إدارة

شرطة اسكتلانديارد الآن، وفي ظنّي أنكم سوف تقرؤون هذا الحل في الصحف خلال أيام قلائل.

فقالت جويس: تُرى ما الحل الصحيح لهذه القضية؟ ليفكّرْ كلّ منّا خمس دقائق ثم لِيُبدِ لنا رأيه.

وهنا تولّى ريموند ويست تسجيل الوقت، وعندما انتهت الدقائق الخمس التفت إلى الدكتور بندار القس قائلاً: هلاّ قلت لنا رأيك أولاً؟

فهزّ العجوز رأسه قائلاً: أعترف بأنني في حيرة تامة ولا أستطيع إلاّ أن أتصور أن الزوج هو الجاني. أما كيف فعل فعلته فهذا ما لا أستطيع تصوره، وفي رأيي أنه استطاع أن يدسّ السم لزوجته بطريقة لم يمكن إماطة اللثام عنها، وإن كنت لا أتصور كيف يمكن الكشف عن هذا بعد طول المدة.

- وأنتِ يا جويس؟

فقالت جويس بيقين: المرافقة هي الجانية. لا يبعد أنها كانت على علاقة غرامية بجونز رغم تقدم سنها، ولكم أن تتصوروا شعور مرافقة مثلها وهي مضطرة إلى مجاراة مخدومتها في كل شيء وملاطفتها ومصانعتها... إلى غير ذلك من الأمور التي تقتل شخصية الإنسان واستقلاله الفكري وتُشعِره في دخيلته بالمهانة. ثم جاء أخيراً يوم لم تعُد فيه تُطيق الصبر، فقتلت الزوجة. والمرجَّح أنها هي التي دسّت الزرنيخ في قدح الشراب ثم اختلقت تلك القصة التي قالتها عن تناولها هي نفسها القدح، خصوصاً وهي تراعي برنامجاً للنحافة في طعامها.

- وأنت يا سيد باتريك؟

فراح المحامي يقول: لا يمكنني أن أجادل الحقائق المادية الثابتة، ولكن رأيي الخاص أن الزوج هو الجاني، والتفسير الوحيد الذي يمكن استخلاصه من ثنايا الوقائع المادية هو أن الآنسة كلارك المرافقة أخذت عمداً دور المدافع عنه المتستّر عليه، ولا يبعد أنه قد عُقد بينهما اتفاق ماليّ يعطيها بموجبه -بصفة خصوصية- مبلغاً كبيراً إذا هي وافقت على التقدم في التحقيق بقصة شُربها لقدح دقيق القمح، وبهذا تدفع عن نفسها شبح الفاقة والتشرد.

وعندئذ قال ريموند ويست بدوره: أنا أخالفكم جميعاً؛ فقد نسيتم العنصر المهم في القضية، وأعني به ابنة الطبيب. وإليكم تفسيري للقضية: كانت علبة جراد البحر فاسدة، وهي تفسر ظهور أعراض التسمم، وقد استُدعي الطبيب فوجد السيدة جونز، التي أكلت من جراد البحر كمية أكبر من غيرها، في حالة ألم شديد، فبعث في طلب بعض أقراص الأفيون كما قلتم لنا. وأقول إنه بعث يطلب الأقراص ولم يذهب بنفسه، ومَن الذي يعطي الرسول الأقراص؟ ابنة الطبيب بالطبع، وأغلب الظن أنها تتولى بنفسها تحضير مثل تلك العقاقير لأبيها، وهي على علاقة عاطفية بجونز، ومن المؤكد أن كل غرائزها الشيطانية ستتحرك في تلك اللحظة وتوقن أن الوسيلة المتاحة لتحريره من قيود الزوجية قد سنحت بين يدَيها، وهكذا ترسل الأقراص المطلوبة وفيها زرنيخ مركَّز. هذا هو تحليلي للقضية.

قالت جويس باهتمام: والآن يا سير هنري، قل لنا الحلّ الحقيقي للغز.

فقال السير هنري: مهلاً يا سادة؛ الآنسة ماربل لم تتكلم

حتى الآن.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها باكتئاب ثم قالت: الحقيقة أنني قد انشغلت بهذه القضية إلى حدّ أنساني عدد غرز الإبرة. إن هذه قضية محزنة فعلاً للأسف، وهي تذكّرني بالسيد هارغريف العجوز الذي كان يقيم في مونت؛ فامرأته ظلّت لا يخامرها أيّ شك في أمره إلى أن مات تاركاً كل ثروته لامرأة كان يعيش معها وأنجب منها خمسة أبناء. كانت تلك المرأة -في وقت ما- وصيفة عند الأسرة، وكانت السيدة هارغريف تثني عليها وتقول إنها أكفأ وصيفة عرفتها، وذلك طول الوقت الذي كان فيه هارغريف يعيش مع الوصيفة في بيت خاص استأجره لها في البلدة المجاورة، مع مواظبته على الصلاة في الكنيسة كل أحد دون كلل أو انقطاع!

ثم تركت الإبرة ونظرت نحو الجميع وهي تقول: قضيتكم الحاليّة تذكّرني بقصة هارغريف كما قلت، والعناصر في القضيتين متماثلة تماماً، وأظن يا سير هنري أن الفتاة المسكينة قد اعترفت، ولذلك فأنت تعرف حلّ اللغز.

فقال ريموند بدهشة: أية فتاة تعنين يا عمتي؟

- الفتاة المسكينة غلاديس لينش بالطبع. الوصيفة التي بدا عليها أشد الاضطراب والجزع عندما استجوبها الطبيب، وكان من الطبيعي أن تضطرب وتجزع. أرجو أن ينال جونز الشرير جزاءه شنقاً؛ لقد جعل من تلك الفتاة المسكينة قاتلة بعدما غرّر بها واتخذها عشيقة له، وأظنهم سوف يشنقونها هي الأخرى.

وعندما حاول المحامي أن يبيّن للآنسة ماربل خطأ

استنتاجاتها هزّت رأسها بإصرار ونظرت إلى السير هنري قائلة: ألستُ على حق؟ عناصر القضية واضحة أمامي: المئات والآلاف وكعكة الفواكه... هذه أشياء لا يمكن أن يخطئها الإنسان.

فلم يتمالك ريموند نفسه فهتف قائلاً لعمته: وما حكاية كعكة الفواكه والمئات والآلاف؟

فالتفتت إليه الآنسة ماربل قائلة: إن الطهاة يزخرفون كعكة الفواكه بقطع سكّرية صغيرة قرمزية وبيضاء نسميها -نحن السيدات- «المئات والألوف»، وعندما سمعتُ أنهم تناولوا بين ما تناولوا في طعام العشاء كعكة الفواكه، وأن الزوج حرّر لأحدهم رسالة عن المئات والآلاف، كان من الطبيعي أن أربط بين الأمرين؛ فهنا كان موضع الزرنيخ، في المئات والألوف، أي في القطع السكرية الصغيرة. لقد ترك المادة مع الفتاة وطلب منها أن تضعها في الكعكة.

فقالت الآنسة جويس: لكن هذا مستحيل؛ فقد أكلوا جميعاً من الكعكة.

فردّت الآنسة ماربل قائلة: آه، لا؛ المرافقة كانت تراعي برنامجاً للنحافة كما تذكرون، ولا يمكن أن يأكل إنسان كعكة دسمة مثل تلك إذا كان يلتزم برنامجاً كهذا، وأعتقد أن جونز أزال هذه القطع السكرية الصغيرة من قطعة الكعكة التي كانت من نصيبه وتركها بجانب الطبق. فكرة حاذقة، ولكنها شريرة بالطبع.

وهنا تركّزت جميع الأنظار على السير هنري الذي راح يقول بتؤدة: الآنسة ماربل أصابت كبد الحقيقة في الواقع. لقد

غرّر جونز بالوصيفة غلاديس لينش ووضعها في موقف لا تُحسد عليه. كانت الفتاة في حالة يأس، وقد أراد جونز أن يُزيح امرأته من الطريق، ووعد غلاديس بالزواج بها بعد وفاة امرأته، وهكذا دسّ الزرنيخ في القطع السكرية الصغيرة وأعطاها للفتاة مبيّناً لها كيف تستخدمها. لقد ماتت غلاديس لينش منذ أسبوع، وقد مات وليدها في أثناء الوضع بعد أن كان جونز قد هجرها إلى امرأة أخرى، وعندما كانت لينش على فراش الموت اعترفت بالحقيقة كاملة.

خيّم صمت قصير لم يلبث ريموند أن قطعه قائلاً: هذه قضية أخرى تسجّل عبقريتك يا عمتي، وإن كنت لا أدري كيف توصلتِ إلى الحقيقة؛ فلم أكن أتصور قط أن يكون للوصيفة أيّ ضلَع في القضية.

فقالت الآنسة ماربل باسمة في تواضع: ذلك لأنك يا عزيزي لم تخبر الحياة كما أُتيح لي. شخص من طينة جونز مفطور على فساد الطبع وانحلال الخلق وانعدام الضمير، وعندما علمتُ أنه كانت في البيت فتاة حسناء أيقنت في الحال أنه لن يدعها وشأنها. هذا أمر محزن إلى أبعد الحدود، ولا ينبغي أن يخوض الإنسان فيه كثيراً. فلنطوِ هذه الصفحة الأليمة.

* * *

الفصل الثاني

لعنة عشتروت

قالت الفنانة جويس لابمريير: والآن يا دكتور بندار، ما القضية التي ستعرضها علينا لكي نحلّ غوامضها؟

فابتسم القس العجوز برقّة ثم قال: لقد كان الهدوء طابع حياتي، إلاّ مرة واحدة مررت فيها بتجربة غريبة مأساوية وأنا شاب. مسرح قصّتي في إقليم دارتمور في منزل خلوي يمتلكه صديقي السير ريتشارد هايدن أطلق عليه اسم «الغابة الصامتة»، وقد دعاني مع أصدقاء آخرين لتمضية أيام ضيوفاً عليه، وكان أبرز الضيوف الآنسة ديانا آشلي فتاة المجتمع التي امتازت بجمالها الفاتن ونبراتها الموسيقية، وقد لمستُ من أول يوم أن السير هايدن كان مفتوناً بها، وإن كنت لم أستطع أن أحدد شعورها نحوه؛ فقد كانت تختصه يوماً بكل اهتمامها، ثم تتجاهله يوماً آخر وتؤثر بذلك الاهتمام ابن عمّه الشاب إليوت هايدن، وهكذا حتى يحار الإنسان في تكييف حقيقة شعورها.

وفي اليوم التالي لوصولنا دعانا المضيف لمشاهدة المنطقة الطبيعية التي قام فيها المنزل الخلوي، وكانت من المناطق المقفرة التي تكثر فيها الحفريات الأثرية، وقد اكتُشفت فيها أدوات برونزية من العصر الحجري. بعد أن حدّثَنا السير هايدن عن تلك الاكتشافات بحماسة الهاوي الخبير مبيّناً أنه قد تعاقب عليها أبناء العصر الحجري والفينيقيون والرومان، أشار إلى البقعة الصخرية الجرداء التي تجاورها غابة صغيرة قائلاً: هذه هي

الغابة المعروفة باسم «الغابة الصامتة» والتي استمدّ منها المنزل اسمه، وهي من بقايا عهود ما قبل التاريخ، وربما يرجع تاريخها إلى عهد استيطان الفينيقيين لهذه البلاد. تعالَوا لأريكم إياها.

فتبعناه جميعاً، وكان السكون المطبق يخيّم على الغابة الصغيرة حتى شعرتُ بالانقباض والوحشة! وقال هايدن باسماً: هذه غابة عشتروت، وفي قلبها كانت تُقام طقوس مقدّسة.

وهنا غمغمت ديانا آشلي وقد بدت في عينيها نظرات بعيدة حالمة: طقوس مقدَّسة! تُرى ماذا كانت هذه الطقوس؟

فردّ هايدن قائلاً: في قلب الغابة معبد سُمّي «معبد عشتروت». تعالَوا معي.

في تلك اللحظات وصلنا إلى دائرة مكشوفة بين الأشجار في وسطها كشك حجري تقدمَنا هايدن إلى داخله، فوقع نظرنا على تمثال لامرأة جالسة على أسد وقد حفّ برأسها قرنان مقوَّسان! وقال هايدن يعرّفنا بها: هذه هي عشتروت إلهة القمر عند الفينيقيين.

فهتفت ديانا قائلة: إلهة القمر؟ يا للمناسبة البديعة! لنُقِم هذه الليلة حفلاً تنكرياً هنا في ضوء القمر.

وأصارحكم أنني توجست شراً من ذلك المكان الغريب، وشاركني بعض الضيوف هذا الإحساس. ولم يَطُل بنا الوقوف والتأمّل، وعدنا إلى المنزل على الأثر. ورغم ذلك فقد تغلّب اقتراح ديانا آشلي بإقامة حفل تنكريّ ليليّ في النهاية.

وعندما اجتمع شملنا حول مائدة العشاء وقد تنكّر كلّ

منّا بما راق له ساد المرح أرجاء المنزل وتجاوبت الضحكات والدعابات في كل مكان، ثم خرجنا بعد العشاء من المنزل. كانت ليلة حارّة صافية، وبدأ القمر يبزغ في الأفق، وأمضينا ساعة كاملة نتجول هنا وهناك ونتسامر بأحلى الأحاديث، إلى أن استرعى نظرنا في النهاية أن ديانا آشلي ليست معنا، فقال ريتشارد هايدن: من المؤكد أنها لم تذهب إلى النوم.

فقالت فيوليت مانرينغ (إحدى الضيفات) مشيرة ناحية الغابة: لقد رأيتها تتجه إلى هناك منذ ثلث الساعة.

فقال ريتشارد هايدن: تُرى ماذا تدبّر لنا هذه الفتاة؟ لنذهب وننظر.

فاتجهنا جمعاً إلى ناحية الغابة التي بدت سوداء، والحق أنني شعرت بانقباض وحدّثتني النفس بقرب وقوع مكروه. وأحسب أن بعض الضيوف كانوا يشاطرونني ذلك الإحساس، ولكننا لم نكن نستطيع التراجع، فكتمنا مشاعرنا وأخذنا نسير معاً متلاصقين صامتين أو هامسين، وما كدنا نخرج من نطاق الغابة إلى الدائرة المكشوفة بين أشجارها حتى تسمرنا في مكاننا وقد تملّكَنا أشد الهول؛ فقد وقعت أنظارنا عند مدخل معبد عشتروت على هيكل إنسانة ملتفة بغلالة سوداء وقد برز من شعرها الغزير قرنان مقوَّسان، فلم تتمالك فيوليت أن هتفت: يا إلهي، هذه ديانا! ماذا فعلت بنفسها؟! إنها تبدو مختلفة!

ولم يلبث الهيكل القائم في مدخل المعبد أن رفع يديه ثم تقدم خطوة إلى الأمام وأخذ يترنّم بصوت عال حلو النبرات قائلاً: أنا كاهنة عشتروت، احذروا وأنتم تقتربون منّي؛ فأنا

أحمل الموت في يديّ.

وعندئذ وثب هايدن نحوها قائلاً: ديانا، أنت رائعة!

ولكنها هتفت محذرة: احترس، لا تقترب من عشتروت! إذا وضع أحدكم يده عليّ فهنا الموت.

فهتف بها هايدن قائلاً: أنت رائعة يا ديانا، لكن كفى الآن، أنا لا أرتاح لهذا.

وتقدم نحوها فوق الحشائش مادّاً يده فصاحت به: قف! خطوة واحدة وأرميك بسحر عشتروت.

فضحك ريتشارد هايدن وزاد اقتراباً منها، وعندئذ حدث شيء غريب... وقف متردداً لحظة، ثم ما لبث أن رأيناه يتعثر ثم يقع ممدَّداً على الأرض، ولم ينهض من رقدته ولكنه ظل منبطحاً على الأرض مكانه، وفجأة أخذت ديانا تضحك بصورة هستيرية، وكان صوتها غريباً مروّعاً تردّد صداه في سكون الغابة الصغيرة. وفي تلك اللحظة وثب إليوت هايدن إلى الأمام ثم هتف قائلاً: أنا لا أحتمل هذا، قم يا رجل.

ولكن ريتشارد هايدن بقي في رقدته؛ فدنا منه ابن عمه إليوت وركع بجانبه وقلَبه برفق على ظهره وانحنى فوقه ينظر في وجهه، وما لبث أن نهض قائماً بحركة فجائية ووقف يترنح قليلاً قائلاً لأحد المدعوّين: دكتور سيموند، تعال بالله عليك، أظنه مات!

فاندفع الدكتور سيموند إلى الأمام وعاد إلينا إليوت متهالك الخطى وهو ينظر إلى يديه بطريقة لم أفهمها، وفجأة انبعثت

صرخة مدوّية من ديانا قائلة: لقد قتلتُه! يا إلهي! لم أقصد هذا، ولكني قتلته!

وهوت مُغمىً عليها وتكوّمَت فوق الحشائش فصرخت إحدى المدعوات مولولة: أبعدونا عن هذا المكان الفظيع... أبعدونا قبل أن تحدث مصائب أخرى!

واقترب إليوت منّي وشدّ على ذراعي قائلاً: لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن أن يُقتل إنسان على هذه الصورة، هذا شيء ضد الطبيعة!

فقلت له أهدّئ من روعه: لا بد من وجود تفسير لما حدث. لا ريب أن ابن عمك كان مريضاً بالقلب دون أن يعرف أحد، فجاءت الصدمة والانفعال لكي...

ولكنه قاطعني قائلاً: أنت لا تعرف.

ورفع إليّ يديه فرأيت فيهما بقعاً حمراء، وابتدرني قائلاً: لم يمُت ريتشارد بصدمة، بل مات مطعوناً! مات بطعنة في قلبه، ولا يوجد سلاح!

فجعلتُ أحدّق إليه وأنا لا أصدق. وفي تلك اللحظة نهض الدكتور سيموند بعد فحص الجثة وتقدم نحونا ممتقع الوجه يرتجف من رأسه إلى قدميه ثم قال: هل اختبلنا جميعاً؟ ما هذا المكان؟ كيف تحدث مثل هذه الحوادث؟!

فقلت له: إذن فما حدث حقيقي؟

فأومأ الطبيب برأسه وقال: يبدو أن الجرح حدث من خنجر طويل مدبَّب، ولكن لا يوجد أيّ خنجر!

فهتف إليوت: لكن لا بد من وجوده، لا ريب أنه سقط بعيداً. لنبحث عن الخنجر.

فأخذنا نحدق إلى ما حولنا بجهد في ضوء القمر، وفجأة قالت فيوليت: لقد كان في يد ديانا شيء، شيء يشبه الخنجر... لقد رأيته يلمع في يدها وهي تهدّده.

وركعت أمام الفتاة المغمى عليها ثم قلت: يوجد الآن شيء في يدها؟

وتقدم الدكتور سيموند من ديانا وقال: لا بد من نقلها إلى المنزل، ساعدوني.

وتعاونّا في نقل الفتاة المغمى عليها إلى المنزل، ثم عدنا بعد ذلك إلى الغابة المشؤومة، ونقلنا جثة السير ريتشارد هايدن ثم أرسلنا نستدعي الشرطة. وفي أثناء ذلك انتحى بي إليوت جانباً وقال لي: سأعود إلى الغابة؛ لا بدّ من العثور على ذلك الخنجر.

فقلت له مرتاباً: إذا لقيت خنجراً فعلاّ...

فشدّ على ذراعي بعنف قائلاً: أنت مثلهم تؤمن بالخرافات وتظن أن الوفاة نتيجة شيء خارق ممّا وراء الطبيعة، أما أنا فعائد إلى الغابة للبحث.

كنت ضد رأيه وحاولت جاهداً أن أثنيه عن عزمه، ولكن بلا جدوى.

* * *

كانت ليلة مروّعة لم يذُق فيها أحدٌ من الضيوف طعم النوم، وحين أقبل رجال الشرطة لم يصدقوا شيئاً مما قيل وحاولوا استجواب ديانا آشلي ولكن الطبيب مانع بشدة قائلاً إنه أعطاها جرعة منوّمة بعد أن جعلها تُفيق من الغيبوبة، وإنه لا بدّ من تركها نائمة حتى الصباح.

لم يفكر أحد في إليوت هايدن حتى كانت الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، وعندئذ سأل الدكتور سيموند عنه فجأة، ولمّا أخبرته بما كان من إليوت في الليلة الماضية زاد وجهه امتقاعاً وقال لي: يا ليته لم يفعل! هذا تهوّر.

-هل تظنه أُصيبَ بمكروه؟

- أرجو ألاّ يكون كذلك، ومن رأيي أن نذهب سوياً للبحث عنه.

كنت أراه محقّاً في ذلك، ولكنني استجمعت أقصى شجاعتي للقيام بتلك المهمة، فذهبنا إلى الغابة المشؤومة ونحن نناديه في الطريق، وحين وصلنا إلى الدائرة المكشوفة بين الأشجار أمسك الدكتور سيموند بذراعي فجأة؛ فقد وقع نظرنا على إليوت هايدن ممدَّداً على الأرض في نفس البقعة التي تمدّد فيها ابن عمه في الليلة الماضية؛ فهتف الطبيب: يا إلهي! لقد أُصيب هو الآخر!

وأسرعنا إلى مكانه فوق الحشائش فلقينا إليوت فاقد الوعي ولكن يتنفس تنفساً ضعيفاً، ولم يكن هناك شك تلك المرة فيما سبّب الفاجعة؛ فقد بقيت في الجرح أداة قاطعة طويلة رفيعة من البرونز، فقال الطبيب: لقد أُصيب في الكتف لا في القلب، وهذا

من حسن الحظ. لا أدري والله كيف أفكّر! على أية حال فهو لم يمُت وسوف يكون في مقدوره أن يخبرنا بما جرى.

لكن هذا لم يكن في استطاعة إليوت أن يفعله؛ فقد كان كلامه مشوَّشاً إلى أبعد حد؛ فقد قال إنه راح يفتّش عن الخنجر عبثاً، وبعد أن نفض يديه من البحث وقف قليلاً قرب الهيكل، وعند ذلك أيقن أن هناك من يراقبه بين الأشجار، ثم شعر بريح قوية تهبّ من داخل الهيكل، فاستدار لينظر إلى الداخل فوقع نظره على تمثال عشتروت يتطاول ويزداد طولاً، وقد عزا ذلك إلى خداع البصر. وفجأة شعر بشبه ضربة فيما بين صدغيه أرسلته مترنحاً على ظهره، وشعر وهو يسقط بألم حادّ ملتهب في كتفه اليسرى. وقد تبين أن الخنجر مطابق للخنجر الذي اكتُشف في المنطقة الأثرية واشتراه ريتشارد هايدن، أما أين كان يحتفظ به (في المنزل أم في هيكل عشتروت) فهذا ما لم يعرفه أحد.

وكان رأي الشرطة أن ديانا آشلي هي التي طعنت السير ريتشارد هايدن عمداً، ولكن إزاء شهادتنا الجماعية بأنه كانت تفصل بينهما مسافة ثلاثة أمتار فقد عجزوا عن توجيه التهمة إليها رسميّاً. وهكذا بقي الحادث لغزاً!

خيّم صمت طويل حين فرغ القس من قصته، وأخيراً سألت جويس قائلة: هذا شيء فظيع مروّع، أليس لديك تفسير له يا دكتور بندار؟

فأومأ الرجل العجوز قائلاً: عندي تفسير من نوع ما، وهو تفسير غريب في الواقع، وإن كانت بعض النقاط يلابسها الغموض.

فقالت جويس: في رأيي أنه يمكن تفسير ما حصل من خلال التنويم المغناطيسي. ديانا آشلي أحالت نفسها إلى كاهنة لعشتروت، وأظنها طعنت ريتشارد هايدن بطريقة ما، ولعلها قذفته بالخنجر الذي رأته فيوليت في يدها.

فقال ريموند ويست أيضاً: أو ربما قذفته بحربة، خصوصاً ولم يكن ضوء القمر قوياً، وهنا دخل دور التنويم المغناطيسي الجماعي، فقد كنتم جميعاً على استعداد لتصديق أنه صُرع بواسطة قوة خفية من وراء الطبيعة ونظرتم إلى الحادث بهذه العين.

فقال السير كيترينغ مدير شرطة اسكتلانديارد السابق: رأيي أنه من الممكن أن يختبئ شخص بين الأشجار ويقذف بخنجر أو حربة بدقة كافية، شرط أن يكون مدرَّباً، ولعلكم تتذكرون أن المصاب الثاني قرر أنه شعر كأن شخصاً بين الأشجار يراقبه، أما شهادة الآنسة فيوليت بأنها رأت ديانا آشلي ممسكة بخنجر فأنتم جميعاً نفيتم هذا.

أما المحامي باتريك فقد تنحنح قائلاً: لكن بين هذه الآراء والافتراضات يظهر أننا ننسى حقيقة جوهرية، وهي ما جرى لسلاح القتل. ديانا آشلي كان يستحيل عليها إخفاؤه وهي واقفة في مكان مكشوف، ولو كان القاتل قذف بالخنجر وهو مختبئ لَظلّ الخنجر في الجرح وأمكن العثور عليه، إذن فلا بد من نبذ التصورات النظرية والاعتماد على الحقائق المادية.

فسأل السير هنري: وإلى أين تُوصلنا هذه الحقائق؟

فقال المحامي: هناك شيء واضح لا خلاف عليه، فلم

يكن هناك أحد قرب ريتشارد هايدن حين خرّ صريعاً، إذن فالشخص الوحيد الذي يمكن أن يطعنه هو نفسه، أعني الانتحار في الواقع.

فقال ريموند ويست متشككاً: لكن ما الذي يدعوه إلى الانتحار؟

فسعل المحامي ثم أجاب قائلاً: هذا سؤال نظري مرة أخرى. أنا في هذه المرحلة لا أعوّل على النظريات، واستبعاداً لمسألة القوي الخفية ومسائل ما وراء الطبيعة (وهو ما لا أسلّم به) فهذا هو تصويري المادّي لما حدث: لقد طعن نفسه، وفي سقطته انبسطت ذراعاه مما أدّى إلى انتزاع الخنجر من الجرح وانقذافه بعيداً بين نطاق الأشجار.

وهنا تكلمت الآنسة ماربل فقالت: الحقيقة أنه لا يمكن الجزم بشيء بصورة قاطعة؛ فالوقائع محيّرة في الواقع، ولكن هناك غرائب تقع فعلاً. طبعاً لا شكّ أن هناك طريقة واحدة تلقّى بها السير ريتشارد المسكين تلك الطعنة، لكنني أودّ أن أعرف -قبل كل شيء- ما جعله يتعثر ويسقط. طبعاً لا يبعُد أنه تعثّر في جذع شجرة ناتئ فوقع على الأرض فقد كان ينظر إلى ديانا آشلي، وفي ضوء القمر يمكن أن يتعثر الإنسان بأيّ جسم ناتئ.

فقال لها القس وهو ينظر إليها بنظرة غريبة: قلتِ إن هناك طريقة واحدة تلقّى بها ريتشارد هايدن تلك الطعنة القاتلة؟

فراحت الآنسة ماربل تقول: هذه قصة محزنة ولا أحب أن أفكر فيها. أرجو ألاّ يكون ذلك الشاب التعِس إليوت قد أفاد

من جريمته الشريرة.

فلم يمتلك ريموند أن هتف قائلاً: إليوت؟! هل تظنين أنه هو الذي ارتكب الجريمة؟

فردّت الآنسة ماربل قائلة: لست أدري كيف يمكن أن يرتكبها شخص غيره. أعني أننا إذا أخذنا برأي الأستاذ المحامي واستندنا إلى الحقائق المادية مستبعِدين جوّ الطقوس القديمة وغير ذلك من الترّهات لوجدنا أن إليوت هو الذي تقدّم إلى ريتشارد قبل غيره وقلبه على ظهره، ولمّا كان متنكراً في زيّ قطّاع الطرق في أثناء الحفلة فلا ريب أن يكون في حزامه سلاح من نوع ما، وأذكر أني رقصت في شبابي في حفلة تنكرية مع رجل تنكّر في زيّ قطّاع الطرق وكان يحمل خمسة خناجر مختلفة!

وعندئذ اتجهت أنظارهم جميعاً إلى الدكتور بندار، فبدأ الرجل العجوز يقول: لقد عرفتُ الحقيقة بعد خمس سنوات من وقوع تلك المأساة، وقد جاءتني في شكل رسالة تلقيتها من إليوت هايدن. قال في الرسالة إنه يتصور أنني كنت أرتاب فيه طول الوقت، وقد اعترف بأن ما حدث كان نتيجة إغراء فجائي تملّكه؛ فقد أحب ديانا آشلي قبل ابن عمه ريتشارد هايدن، ولكنه كان فقيراً، وبإزاحة ريتشارد من الطريق وحصوله على الميراث من ابن عمه كانت أمامه فرصة لا مثيل لها لتحقيق حلمه. وعندما سقط ابن عمه ريتشارد على الأرض متعثراً وانحنى هو فوقه شعر بالخنجر يصلصل في حزامه، وقبل أن يفكّر فيما هو فاعله أغمد الخنجر في قلبه وأعاده إلى حزامه ثانية، ثم طعن نفسه في المرة الثانية لكي يبعد الشبهة عنه، وقال إنه كتب تلك

الرسالة ليلة ارتحاله في بعثة إلى القطب الجنوبي متوقعاً ألاّ يقدَّر له أن يعود.

ثم أطلق زفرة حارة قبل أن يكمل قائلاً: ولا أظن أنه كان ينوي تلك العودة، وأعتقد -كما قالت الآنسة ماربل- أنه لم يستفِد شيئاً من جريمته؛ فقد اختتم الرسالة قائلاً إنه ظلّ خمس سنوات يعيش في جحيم من وخز الضمير وإنه يرجو أن يكفّر عن جريمته بميتة بطولية.

وخيم الصمت مرة أخرى، وأخيراً قال السير هنري: وكان نصيبه تلك الميتة فعلاً. لقد غيرتَ الأسماء في قصتك يا دكتور بندار ولكن أظن أني أعرف الشخص الذي تقصده.

فاستطرد القس قائلاً: ومع ذلك فما زلت أشعر أنه كان هناك تأثير شرير يبسط ظلاله على تلك الغابة المشؤومة، تأثير كان هو المحرّك للشاب إليوت هايدن للإقدام على جريمته. وما زلت حتى اليوم لا أستعيد ذكرى فاجعة معبد عشتروت دون أن أشعر بقُشَعْريرة تسري في بدني!

* * *

الفصل الثالث

شحنة الذّهب

قال ريموند لأعضاء ندوة الثلاثاء الليلية: سأقص عليكم بدوري وقائع قضية غريبة حدثت منذ عامين عندما ذهبت إلى مقاطعة كورنوول لتمضية أسبوع عند شخص يُدعى جون نيومان في قرية بولبيران التي تقع على الشاطئ الغربي، وهي منطقة صخرية موحشة. كنت قد تعرفت به منذ أسابيع قلائل ووجدته شخصية طريفة ذات ميول رومانتيكية، وكان حجّة في التاريخ المعاصر للملكة إليزابيث، حتى إنني عندما سمعته يحدّثني بإفاضة وحماسة عن إبادة أسطول الأرمادا الإسباني في ذلك العهد خُيّل إليّ أنه كان من شهود تلك المعركة الشهيرة!

وهنا قالت الآنسة ماربل وهي تنظر إلى ابن أخيها بمودّة: أراك بدأت تتأثر بالجو الرومانتيكي يا بنيّ.

فقال ريموند بامتعاض: هذا آخر شيء في طبعي، ولكن كلام نيومان هذا ألهب خيالي؛ فقد حدث أنّ سفينة من سفن أسطول الأرمادا كانت محمَّلة بشحنة كبيرة من الذهب الخاصّ بإسبانيا تحطمت على شاطئ كورنوول عند صخور سربنت روكس الغادرة، وقد حدّثني نيومان أنه منذ سنوات عديدة بُذلت محاولات لانتشال الذهب الغارق، فأُنشئت شركة للقيام بهذا العمل، ولكنها أفلست. واستطاع نيومان أن يشتري حقوق القيام بهذه العملية، وكان من رأيه أن الاستعانة بالأساليب العلمية والآلات الحديثة كفيلة بتحقيق ذلك الغرض.

الحقيقة أن حماسة نيومان سرَت إلى نفسي وضاعفت من حماسي لمشاهدة تلك العملية عن كثب؛ فقد كنت وقتئذ منهمكاً في كتابة رواية جديدة تقع بعض أحداثها في القرن السادس عشر، ورأيت الفرصة سانحة للحصول على المادة اللازمة في ذلك المكان التاريخي. وهكذا سافرت من لندن بالقطار صباح يوم جمعة وأنا ممتلئ حماسة وشوقاً، وكانت المركبة خالية إلا من شخص جالس في الركن المواجه لي يلوح عليه الطابع العسكري، وخُيّل إليّ أني رأيته من قبل، وبعد أن شحذت ذاكرتي فترة تذكرت أنه مفتش الشرطة السرّي بادغويرث، وكنت قد التقيت به في أثناء كتابتي لسلسلة من المقالات في قضية اختفاء شغلت الأذهان في حينها. لم أتوانَ في تقديم نفسي إلى مفتش الشرطة السري، وبعد وقت قصير كنّا نتحادث كصديقين.

عندما أخبرته بأنني ذاهب إلى قرية بولبيران قال إنها مصادفة غريبة لأنه أيضاً ذاهب إلى نفس القرية، ولكني لم أشأ أن أتطفّل عليه بالأسئلة عن مهمته وحدثتُه بدلاً من ذلك عن سبب اهتمامي بتلك البقعة مشيراً إلى سفينة الذهب الإسبانية الغارقة، ففوجئت بأنه يعرف كل شيء عنها، حتى إنه قال: السفينة جوان فرناندیز. لن يكون صديقك آخِر شخص يُغرق أمواله في البحر لانتشال المال منه.

فقلت للمفتش: ألا ترى أن الخيال لعب دوراً كبيراً في هذه القصة؟

- ولكن السفينة غرقت هناك لا شك في ذلك، مع سفن أخرى غيرها. ولعلك تدهش حين تعرف أنّ سفناً كثيرة

تحطمت وغرقت على ذلك الشاطئ الصخري، والحقيقة أن هذا الموضوع هو سبب ذهابي الآن إلى هناك حيث تحطمت السفينة أوترانتو وغرقت منذ ستة أشهر فقط.

فقلت للمفتش: أذكر أنني قرأت عن هذا الحادث، ولكنه لم يقترن بغرق أحد.

فردّ المفتش: هذا صحيح، ولكنه اقترن بغرق شيء آخر؛ فهناك مسألة لم يعرفها الكثيرون، وهي أن السفينة أوترانتو كانت تحمل شحنة من الذهب.

فقلت وقد ثار اهتمامي: حقاً؟!

- نعم، وطبيعيّ أننا كلّفنا غوّاصين بالعمل لانتشال الذهب، ولكننا وجدناه قد اختفى!

فحدّقت إلى المفتش قائلاً: اختفى! وكيف يمكن أن يختفي؟

- هذه هي المعضلة، فالصخور أحدثت ثغرة في عنبر السفينة، وكان من السهل أن ينفذ منها الغوّاصون إلى داخل العنبر، ولكنهم وجدوه خاوياً! والسؤال هو: هل سُرق الذهب قبل غرق السفينة أم بعد غرقها؟ أو هل كان الذهب في السفينة فعلاً أم لم يكن فيها؟

فقلت: يا لها من قصة غريبة!

- إنها قضية غريبة كما تقول؛ فشحنة الذهب ليست كعقد ألماس يمكن وضعه في الجيب، بل هي شيء ضخم كبير الحجم يستحيل اختفائه هكذا ببساطة، ولا يبعد أنه حدث عبث وتلاعُب

قبل إبحار السفينة، وإذا لم يكن هذا فلا بد أن شحنة الذهب قد انتُشلت في غضون الشهور الستة الماضية، وأنا ذاهب إلى هناك للبحث والتحري.

مهما يكُن فقد وجدت نيومان في انتظاري في المحطة، وقد اعتذر لي عن عدم وجود سيارته التي تعطلت وأرسلها للإصلاح وجاء في سيارة نقل تابعة لمزرعته، وهكذا صعدت إلى جانبه وسارت بنا سيارة النقل بطيئاً في شوارع قرية الصيّادين الضيقة المتعرجة.

سلكت سيارة النقل طريقاً آخذاً في الارتفاع حتى انتهت بنا إلى درب متعرج قام في نهايته بيته الخلوي المعروف باسم بول هاوس. كان في الواقع بيتاً جميلاً شُيّد فوق ربوة صخرية عالية تطلّ على البحر، ورغم قِدَمه فقد أُضيفَ إليه جناح عصري حديث وامتدت من خلفه مزرعة مساحتها نحو عشرة أفدنة، وكانت ليلتي الأولى بديعة تستهوي النفس.

أطلعني مضيفي على مخطوطات قديمة خاصة بالسفينة الإسبانية جوان فيرناندیز، وبسط أمامي خرائط ملفوفة شرح لي معالمها بإسهاب، كما أطلعني على رسوم لأجهزة غوص أعترف لكم أنها أذكت خيالي إلى حد بعيد، ولما حدّثته عن لقائي بمفتش الشرطة بادغويرث أبدى اهتماماً كبيراً وقال معقّباً: أهل هذه المنطقة الساحلية ذوُو طباع غريبة فعلاً؛ فالتهريب والاستيلاء على الحطام يجري في دمائهم، وعندما تتحطم سفينة على شاطئهم وتغرق يعدّونها غنيمة مشروعة لهم، وهناك شخص منهم أودّ أن تراه، وسوف تجد فيه نموذجاً طريفاً للماضي.

وفي اليوم التالي رافقني إلى القرية وعرّفني بالغوّاص التابع له المدعوّ هيغنز، وكان شخصاً جامد الملامح قليل الكلام، وبعد مناقشة فنّية بينهما في أعمال الغوص ذهبنا إلى حانة «المراسي الثلاث» حيث حلّت الجعة عقدة لسان الغوّاص فقال لمخدومه: لقد حضر مفتش شرطة سريّ من لندن، ويقال إن السفينة التي غرقت هنا في نوفمبر الماضي كانت تحمل شحنة من الذهب. على أية حال ليست هي أول سفينة من هذا النوع ولن تكون آخر سفينة.

وهنا تدخل صاحب الحانة قائلاً: صدقت يا هيغنز.

ردّ عليه هيغنز قائلاً: أنا عند كلمتي دائماً يا سيد كليفين.

كان صاحب الحانة غريب الملامح بوجهه الأسمر وكتفيه العريضَين وعينيه المحتقنتين ونظراته الحادة، فأدركت على الفور أنه صاحب الشخصية الغريبة الذي تكلم عنه نيومان، وما لبث صاحب الحانة أن قال بتبجّح: نحن لا نريد أغراباً يتدخلون في شؤوننا على هذا الشاطئ.

فسأله نيومان باسماً: هل تقصد الشرطة؟

فأجاب كليفين بلهجة معنوية: الشرطة وغيرها.

ولم أتمالك أن قلت لمضيفي ونحن نرتقي التل عائدَين إلى البيت الخلوي: هل تعرف يا نيومان؟ لقد بدت لهجة صاحب الحانة في سمعي أقرب إلى التهديد.

فضحك صديقي قائلاً: كلام فارغ؛ فأنا لا أبادر الأهالي هنا بأي سوء.

هززت رأسي متشككاً؛ فقد لامستُ بوادر تنذر بالشر في مسلك كليفين وهيئته، وأعتقد أن أسباب قلقي بدأت منذ تلك المقابلة، وكان نومي متقطّعاً مضطرباً تلك الليلة بعكس ليلتي الأولى.

وفي صباح يوم الأحد تغيّر الطقس فجأة وبدا منذِراً بالأمطار والرعود، وفي فترة بعد الظهر دعاني نيومان إلى نزهة في قاربه البخاريّ، ولكن الأمطار هطلت فجأة حتى كان من دواعي سروري أن نعود إلى الشاطئ لتغيير ملابسنا. وفي المساء شعرت بتزايد في حالة الاضطراب؛ فقد كانت العاصفة تزيد عنفاً في الخارج، على أنها لم تلبث أن هدأت في نحو العاشرة مساء؛ فأطلّ نيومان من النافذة وقال لي: لقد بدأ الطقس يصفو، وأراهن أنه لن يمضي نصف الساعة حتى تكون الليلة بديعة، وفي هذه الحالة سأخرج للقيام بنزهة.

فقلت متثائباً: أما أنا فأشعر بميل شديد للنوم؛ فأنا لم أَنَم كفايتي الليلة الماضية، وأظن أني سآوي إلى الفراش مبكراً.

وبالفعل نمت نوماً عميقاً تلك الليلة، وإن تخلّلَته الأحلام المزعجة، وعندما استيقظت كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، وقد شعرت بصداع أليم نتيجة لتأثير الأحلام المفزعة التي خالطت نومي، واتجهت إلى النافذة محاولاً تخفيف ما أشعر به، إلا أنني ما كدت أفتحها حتى تجددَت مشاعر الفزع في نفسي؛ فقد كان أول مشهد صادفَته عيناي رجلاً يحفر قبراً مفتوحاً، فانتظرت دقيقتين حتى تمالكت نفسي، ثم تبيّنت في النهاية أن من تصوّرت أنه حفّار قبور لم يكن سوى بستانيّ نيومان، وأن القبر لم يكن سوى حفرة لغرس ثلاث أشجار ورد

جديدة كانت ملقاة على الحشائش تنتظر وضعها في الحفرة.

ونظر البستانيّ ناحيتي فبادرني بالتحية قائلاً: الطقس بديع هذا الصباح.

فرددت تحيته مؤمّناً على كلامه، وإن لم يفارقني شعور الانقباض الذي كان يلازمني. ومهما يكن فقد نزلتُ إلى الدور الأرضي لتناول طعام الفطور، ولم يكن عند نيومان نساء للخدمة في بيته، ولكن كانت تأتيه شقيقتان عانسان من المزرعة القريبة تتولّيان إعداد مطالبه المحدودة. وكانت إحداهما تصبّ القهوة لدى دخولي، فحيّيتها قائلاً: طاب صباحك يا إليزابيث. ألم ينزل نيومان بعد؟

فردّت قائلة: لا بد أنه خرج مبكراً يا سيدي؛ فهو لم يكن في المنزل عندما وصلنا.

وفي الحال عاودني القلق؛ ففي اليومين السابقَين نزل نيومان للفطور معي، ولم أعهده مبكّراً في الاستيقاظ من النوم، وقد دفعتني تلك المخاوف إلى الإسراع بالصعود إلى حجرة نومه، وإذا بي أجدها خالية، كما أن فراشه بدا مرتَّباً وكأنه لم ينَم فيه ليلته. زادت مخاوفي عندما اكتشفت شيئاً آخر، فإذا صحّ أن نيومان قد خرج للقيام بنزهة، فلا بد أنه خرج مرتدياً ملابس السهرة لأنني لم أجدها في الغرفة.

تأكدت حينئذٍ أن مخاوفي لها ما يبررها؛ فقد خرج نيومان للقيام بنزهة ليلية كما قال لي، ولكنه لم يعُد لسبب ما! فهل وقع له حادث؟ هل سقط من فوق الصخور العالية؟ لا بد من البحث في الحال. وهكذا لم تمضِ ساعات حتى جمعت فريقاً

من المساعدين وأخذنا نبحث في كل مكان بين الصخور، ولكننا لم نعثر على أثر! وعندما تملّكني اليأس في النهاية لم أجد إلا أن ألجأ إلى المفتش بادغويرث. وما إن استمع إلى قصتي حتّى علاه الوجوم وقال: يبدو لي أن هناك شراً مبيَّتاً؛ فهناك أناس لا يتورعون عن شيء في هذه المقاطعة. هل قابلت كليفين صاحب حانة «المراسي الثلاثة»؟

ولمّا أجبته بالإيجاب قال المفتش: هل تعرف أنه كان محكوماً عليه بالسجن أربع سنوات بتهمة العنف والإتلاف؟

- لن يدهشني هذا.

- الرأي السائد هنا هو أن صديقك نيومان يحشر أنفه في شؤون لا تعنيه، وأرجو ألاّ يكون قد أصابه مكروه.

وعلى أية حال فقد واصلنا البحث عن نيومان بهمّة مضاعَفة، وعند العصر أثمرت مساعينا الجاهدة في النهاية؛ فقد عثرنا عليه في حفرة عميقة في ركن ناء في مزرعته، وكان مقيَّد اليدين والقدمين وعلى فمه منديل محكَم لمنعه من الصراخ والاستنجاد، وكان المسكين مضعضَعاً وفي حالة يُرثى لها!

ولكن بعد أن أسعفناه بالتدليك وبجرعات قوية من الشراب استطاع أن يحكي لنا قصته، فقال إنه خرج في نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً للقيام بنزهة بعد أن صفا الطقس، وقادته قدماه إلى بقعة بين الصخور تُعرف باسم «كهف المهرّبين» تنتشر فيها مغارات كثيرة متشابكة، فاسترعى نظرَه بعضُ الرجال يُنزلون شيئاً من قارب صغير، فتقدم منهم مستطلعاً، وكان الشيء الَذي يُنزِلونه كبير الحجم، وكانوا يتجهون إلى أحد الكهوف، فزاد

ذلك من فضول نيومان حتى أخذ يقترب من الرجال لكي يتبيّن ما يفعلون دون أن يفطنوا إلى وجوده.

فجأة تعالت صيحة انزعاج، وفي الحال انقضّ عليه رجلان قويان ممّن يعملون في البحر وغيّباه عن الوعي، ولمّا أفاق وجد نفسه ممدّداً في سيارة نقل راحت تمضي بهم جميعاً وهي تهتزّ وتتطاوح في درب يؤدّي من الساحل إلى القرية، وكم كانت دهشته عظيمة عندما وجد سيارة النقل تدخل بهم من بوابة منزله. وبعد نقاش هامس بين الرجال رفعوه من مكانه مقيّداً مكمَّماً وألقوا به في حفرة عميقة تجعل اكتشافه غير ممكن إلى حين، ثم واصلت سيارة النقل سيرها وخرجت من بوابة أخرى في دائرة المنزل أقرب إلى القرية بنحو ربع الميل.

ولم يستطِع نيومان أن يعطي أوصاف مهاجميه أكثر من أنهم من رجال البحر ومن أبناء مقاطعة كورنوول طبقاً للهجتهم. وعندئذٍ هتف المفتش بادغويرث وقد اشتدّ اهتمامه: ثقوا أن هذا هو المكان الذي أخفوا فيه الذهب. لا بد أنهم انتشلوا الشحنة بطريقة ما من السفينة الغارقة وأودعوها أحد الكهوف المنعزلة، وأنتم تعرفون أننا فتشنا جميع المغاور في منطقة «كهف المهربين»، ونحن نقوم بتوسيع دائرة التفتيش. الظاهر أنهم كانوا ينقلون الشحنة ليلاً إلى كهف نكون قد فتشناه، ولسوء الحظ أنهم سبقونا الآن بنحو ثماني عشرة ساعة لإخفاء الشحنة، وما داموا قد أسروا السيد نيومان الليلة الماضية فأنا أشكّ أنه سيكون في وسعنا العثور على الشحنة الآن.

وقد أسرع المفتش للقيام بتفتيش جديد في ذلك المكان، فاكتشف آثاراً تدلّ على إيداع شحنة الذهب في إحدى

المغارات، ولكنها نُقلت من مكانها الجديد مرة أخرى ولم يجد أثراً يرشد إلى المخبأ الجديد، لكن كان هناك مع ذلك أثر توصّل إليه المفتش وحدثني عنه في صباح اليوم التالي قائلاً: ذلك الدرب الذي سلكَته سيارة النقل غير مطروق إلاّ نادراً، وقد عثرنا في بعض مواضع منه على آثار إطارات ظاهرة تماماً.

كانت هناك علامة مثلَّثة في أحد الإطارات بدت واضحة تماماً، وقد تبيّن منها دخول سيارة النقل إلى البوابة وخروجها من البوابة الأخرى، وهذا مما يقطع بأنها سيارة النقل التي نبحث عنها. السؤال الآن هو: لماذا لم يخرجوا بسيارة النقل من البوابة إلاّ بعد فترة؟ يبدو لي أن سيارة النقل جاءت من القرية، وإذا كان الأمر كذلك فليس في القرية سوى أشخاص معدودين يمتلكون سيارات نقل، هم اثنان أو ثلاثة على الأكثر، منهم كليفين صاحب حانة «المراسي الثلاث».

فقال نيومان: وماذا كانت مهنة كليفين الأصلية؟

فردّ المفتش: غريب أن تسألني هذا السؤال يا سيد نيومان!

تبادلت النظر مع نيومان؛ فقد بدأ اللغز يتكشف شيئاً فشيئاً. وما لبث المفتش أن سأل صديقي: ألم تتعرّف يا صاحبي على كليفين بين الرجال الذين رأيتهم على الشاطئ؟

فهزّ نيومان رأسه ثم قال بلهجة الأسف: لا أظن أنني أستطيع أن أجزم بهذا.

وقد جاملني المفتش وصحبني إلى حانة «المراسي الثلاث»، وكان المرأب الملحَق بها في طريق جانبي وأبوابه

مغلقة، ولكننا وجدنا في حارة ملاصقة باباً صغيراً مفتوحاً، ولم يستغرق بحث المفتش طويلاً إذ هتف قائلاً: لقد وصلنا إليه، هذه هي العلامة المثلثة واضحة كالشمس في إطار العجلة الخلفية اليسرى. الآن لن تستطيع يا سيد كليفين أن تنجو من هذا الموقف.

* * *

وعند هذا الحد توقف ريموند ويست عن إتمام القصة، فالتفتت إليه صديقته الفنانة جويس قائلة: أخيراً! لا أظن بعد هذا أن هناك معضلة في هذه القصة، اللهم إلاّ إذا كانوا قد عجزوا عن التوصل إلى مخبأ الذهب.

فأجاب ريموند: بالتأكيد لم يعثروا على الذهب ولم يتوصلوا إلى إدانة كليفين أيضاً، وفي ظنّي أنه كان أكثر دهاء ومكراً، وإن كنت لا أعرف كيف تَحقّق له هذا! لقد قُبض عليه فعلاً على أساس علامة الإطار المثلّثة، ولكن حدثت ثغرة غريبة عجزت أمامها الشرطة؛ فقد كان أمام باب المرأب العمومي كشك صغير مؤجَّر لسيدة فنانة، وكانت تلك الفنانة مريضة منذ أسابيع، وكانت تشرف على علاجها ممرضة جلست ساهرة تلك الليلة قرب النافذة المفتوحة، وقد شهدت بأن سيارة النقل لا يمكن أن تغادر المرأب المواجه دون أن تراها، وأقسمت على أنه لم يخرج من المرأب تلك الليلة بالمرّة.

فقالت جويس: لا أظن أن هذه معضلة؛ فلا شك أن الممرضة استولى عليها النوم كما هو شأن أغلب الممرضات.

فردّ عليها ريموند قائلاً: هناك الفنانة ذاتها؛ فقد شهدت

بأنها كانت تعاني آلاماً حادة تلك الليلة حتى ظلّت مستيقظة أكثر الليل، وكان من المؤكَّد أن تسمع خروج سيارة النقل من المرأب، خصوصاً وأن لها ضجيجاً لا تخطئه الأذن في سكون الليل، وهو ما لم يحدث!

فقال القس الدكتور بندار: وهل أثبت كليفين وجوده بعيداً عن مكان الحادث وقت وقوعه؟

فردّ ريموند: لقد قرر أنه كان على فراشه من الساعة العاشرة ليلاّ حتى الصباح، ولكنه لم يستطِع أن يقدم شهوداً يؤيدونه.

والتفت ريموند إلى مدير الشرطة السابق قائلاّ: ما رأيك يا سير هنري؟

فأجاب السير هنري باسماً: الحقيقة أنني أعرف معلومات عن هذه القضية، ولذلك أفضّل ألاّ أتكلم.

فقال ريموند: لم يبقَ إلا عمّتي جين. أليس لديك ما تقولينه بصدد هذه القضية يا عمّتي؟

فأجابت الآنسة ماربل: سأتكلم بعد دقيقة يا عزيزي؛ لقد أخطأت في عد الغرز وسأتكلم بعد تصحيح العدد.

ولما عاد ريموند يسألها رأيها قالت: لن ترتاح إلى رأيي يا عزيزي؛ فالشباب لا يحب -عادة- رأي الكهول، الأفضل ألاّ أتكلم.

- كلام فارغ يا عمتي جين. هيا، قولي لنا رأيك.

فوضعت الآنسة ماربل الخيوط والإبرة جانباً ونظرت إلى

ابن أخيها قائلة: لا بأس يا عزيزي ريموند. في رأيي أنه خير لك أن تدقّق في اختيار أصدقائك؛ فأنت شاب سريع التصديق سهل الانخداع، وأظن أن السبب في ذلك أنك كاتب ولك خيال واسع. يا لتلك القصة عن سفينة الذهب الغارقة! لو أنك كنت أكبر سناً لالتزمتَ الحذر أكثر من هذا مع رجل لم تتعرّف به إلا من أسابيع معدودة.

وفجأة ضجّ السير هنري بالضحك وضرب على ركبته قائلاً: لقد وقعتَ في الفخ هذه المرة يا ريموند، أما أنتِ يا آنسة ماربل فأنت عبقرية لا مثيل لها. اعلم يا بنَيّ أن صديقكَ نيومان الذي رويت قصته له اسم آخر، بل أسماء متعددة في الواقع، وهو الآن ليس في مقاطعة كورنوول بل في مقاطعة ديفونشير في سجن دارتمور. لم نقبض عليه بسبب قضية شحنة الذهب المسروقة بل بسبب السطو على الخزانة الرئيسية في أحد بنوك لندن، وعندما بحثنا سجله الماضي استطعنا أن نعثر على جانب كبير من الذهب المسروق من البنك مدفوناً في حديقة بيته المسمّى بول هاوس.

ثم اعتدل في جلسته ووجه حديثه للجميع قائلاً: كانت فكرته في الواقع بارعة، فعلى امتداد شاطئ كورنوول هناك قصص منتشرة عن السفينة المحطمة الغارقة بما فيها من ذهب، وهذه القصص تفسّر حكاية الغوّاصين، ويمكن أن تفسر فيما بعد سبب وجود ذهب البنك عنده، لكنه كان محتاجاً لكبش فداء، وكان كليفين هو الكبش المثالي الذي يفي بالغرض، والواقع أن نيومان لعب تمثيليته الكوميدية ببراعة وحذق، وقام صديقنا ريموند الروائي الشهير بدور المشاهد الذي لا تُنقَض شهادته.

فقالت جويس معترضة: لكن ماذا عن مسألة علامة إطار سيارة النقل؟

فتولّت الآنسة ماربل الإجابة قائلة: لقد فطنت إلى هذه النقطة في حينها يا عزيزتي، وان كنت لا أعرف شيئاً عن سيارات النقل. تغيير الإطارات مسألة معروفة، ومن السهل نزع إطارات سيارة النقل الخاصة بكليفين وإخراجها من الباب الجانبي الصغير في الحارة وتركيبها في سيارة النقل الخاصة بالسيد نيومان ثم الخروج بسيارة النقل من إحدى البوابتين إلى الشاطئ ونقل الذهب إليه وإحضاره إلى المنزل عن طريق البوابة الثانية. بعد ذلك كان من السهل إعادة العجلة المملوكة إلى سيارة النقل الخاصة به، في الوقت الذي تكفّل فيه أحدهم بتقييد السيد نيومان ووضعه في الحفرة، وأظن أن الرجل الذي ادّعى أنه البستاني هو الذي تكفل بتلك العملية.

فقال ريموند بلهجة العجب: ولماذا تقولين إنه ادّعى أنه بستاني؟

فأجابت الآنسة ماربل: حسناً، لا يمكن أن يكون بستانياً حقيقياً؛ فالبستانيون لا يعملون يوم الإثنين إذا وافق عيداً كما هو معروف.

وطوت الآنسة ماربل خيوطها وإبرتها قائلة: في الواقع هذه الحقيقة الصغيرة هي التي أتاحت لي السير في الوجهة السليمة، وعندما تصبح ربّ بيت يا عزيزي وتكون لك حديقتك الخاصة فسوف تعرف جيداً هذه المسائل اليسيرة.

* * *

الفصل الرابع

بقعة الدم

قالت جويس لامبريير لضيوف الندوة: حدثت هذه القصة الغريبة منذ خمس سنوات، ورغم ذلك فهي ما زالت تطالعني إلى الآن باستمرار. مسرح القصة في راشهول، وهي قرية صغيرة من قرى صيد الأسماك في مقاطعة كورنوول تمتاز بمشاهدها الطبيعية الخلابة، وقد ذهبتُ إليها لرسم لوحة عن موقعها الفريد، ولقضاء أسبوعين بين ربوعها لهذا الغرض. وكان في القرية فندق عتيق اسمه بولها رويت آرمز كان يقال إنه المبنى الوحيد الذي بقي في القرية بعد أن دمّر الإسبان شواطئ المنطقة بمدافع سفنهم المغيرة منذ مئات السنين، والفندق ذاته جميل أثري له مدخل قائم على أربعة أعمدة.

اخترت موقعاً جميلاً بقُربه ووضعت أدوات الرسم لأبدأ في رسم لوحتي المنشودة عندما توقّفَت بقربي سيارة نزل منها رجل وامرأة، وبعد أن غاب الرجل في الفندق برهة عاد إلى السيارة وقادها إلى ناحية رصيف الميناء حيث تركها، ومرّ بي عائداً إلى الفندق.

في نفس الوقت جاءت سيارة أخرى من ناحية التل تشقّ طريقها بصعوبة في الشوارع الضيقة المتعرجة، ثم هبطت منها امرأة في ثوب مشجَّر زاهي الألوان وعلى رأسها قبعة عريضة من القش ذات لون أحمر صارخ، ولكن تلك المرأة لم تتوقف أمام الفندق، بل واصلت قيادة السيارة إلى أقصى الحارة حيث نزلت منها أمام فندق آخر، وما إن لمحها الرجل حتى صاح

يناديها بدهشة: كارول! تصوري أننا نلتقي -من دون الأماكن كلها- في هذه البقعة النائية! أنا لم أرك منذ سنوات. معي هنا زوجتي مرغريت. لا بد أن تأتي لمقابلتها.

وسارا جنباً إلى جنب إلى حيث خرجت المرأة الأولى للقائهما، وكنت قد ألقيت نظرة عابرة على ملامح المرأة المدعوّة كارول وهي تمرّ بي فرأيت وجهها تعلوه المساحيق وفمها مصبوغاً باللون القرمزي الصارخ، حتى لم أتمالك أن عجبت كيف تُسَرّ زوجة الرجل بلقاء امرأة مثلها!

وقد سمعتهم من مكاني يتبادلون الحديث عن السباحة، فكان الزوج، الذي سمعت أن اسمه دنيس، يفكر في استئجار قارب والطواف به حول الشاطئ حيث يوجد كهف شهير يستحق المشاهدة، وكانت كارول تريد مشاهدة الكهف أيضاً ولكنها فكرت أن تسير على امتداد الشاطئ الصخري لكي تشهد الكهف من ناحية البحر نظراً لكراهيتها لركوب البحر. وفي النهاية تمّ الاتفاق بينهم على أن تسير كارول على امتداد الشاطئ لكي تقابلهما عند الكهف في حين يستقل دنيس ومرغريت القارب ويقابلانها هناك.

وقد أثار حديثهم عن السباحة شوقي إليها. وكان الصباح حاراً ولم أكن موفَّقة في الرسم، وقدّرت أنني في ضوء الشمس وقت العصر لن أجيد عملي، فطويت أدواتي وذهبت إلى بقعة في الشاطئ كنت اخترتها لنفسي من قبل، وكانت الناحية المواجه لموقع الكهف.

بعد استمتاعي بالسباحة تناولت غداء خفيفاً ثم عدت وقت العصر مجدّدة النشاط والحماسة لاستئناف رسم لوحتي،

واخترت بقعة أمام الفندق كانت لأشعة الشمس فيها ظلال رائعة تجعل مشهد الفندق كلوحة فنية آية في الروعة. وقد استخلصت أن فريق السباحة الثلاثي عاد من الرحلة بأمان لأنني رأيت ردائَي استحمام منشورَين في الشرفة لكي يجفّا، أحدهما قرمزي والثاني أزرق قاتم.

وفي أثناء انهماكي في الرسم رفعتُ رأسي فجأة ولمحت شخصاً مستنداً إلى أحد الأعمدة عند مدخل الفندق وكأنه ظهر في مكانه بسحر ساحر، وكان يرتدي ملابس رجال البحر، ولعله كان أحد الصيّادين، ولكن كانت له لحية طويلة سوداء ذكّرتني بالقراصنة الإسبان. كان مشهده فريداً في الواقع حتى إنني لم أتمالك أن أدخلته في دائرة اللوحة وجعلت أرسم بحماسة منقطعة النظير قبل أن يغيّر وقفته تلك.

ثم تحرك الرجل أخيراً ولكن بعد أن فرغت من رسم وقفته، وتقدّم ناحيتي وبادرني بالحديث قائلاً: قرية راشهول مكان جذّاب فعلاً.

ومع أنني أمّنت على كلامه إلا أنني مضيت في إتمام الرسم بهمّة مضاعَفة وهو يقصّ عليّ قصة تدمير القرية على أيدي الإسبان وما سال فيها من دماء، والغريب أنني انفعلت بكلام الرجل حتى وجدت نفسي قد رسمت شيئاً لم يكن موجوداً أمام ساحة الفندق، رسمت دماء تسيل في الطريق! وعجبت؛ فكيف غلبني الخيال حتى سجّلَت فرشاتي شيئاً لم تبصره عيناي؟! ولكني عندما اتجهت بنظري إلى ناحية الفندق مرة ثانية تلقيت صدمة جديدة؛ فقد سجّلت يدي ما رأته عيناي فعلاً، وهو بقع من الدم على أرضية الزقاق البيضاء!

جعلت أحدّق فترة ثم أغمضت عينَيّ وأنا أقول لنفسي: لا تكوني بلهاء، ليس هناك شيء في الواقع.

وفتحت عينَيّ، ولكن بقع الدم كانت لا تزال موجودة، فقاطعت الصياد الذي كان ماضياً في ثرثرته عن اعتداءات الإسبان الماضية على القرية والدماء التي سفكوها، وقلت له: عذراً، نظري ليس على ما يرام، فهل ترى بقعاً من الدم على البلاط هناك؟

فنظر إلي الرجل في وداعة قائلا: لا دماء في هذه الأيام يا سيدتي، فما قلتُه لك قد حدث منذ خمسمئة سنة.

- نعم، ولكن الآن على بلاط الحارة...

وتوقفت الكلمات على لساني، وفي تلك اللحظة رأيت الشاب الذي جاء في السيارة في ذلك اليوم يخرج من الفندق، ووقف ينظر حوله تعلو وجهه أمارات الحيرة، ثم خرجت زوجته إلى الشرفة التي وقف تحتها وجمعت ملابس السباحة، وسار الشاب إلى ناحية السيارة ولكنه استدار فجأة وجاء إلى ناحية الصياد وقال له: قل لي يا صاحبي، هل تعرف إذا كانت السيدة التي جاءت في السيارة الأخرى الواقفة هناك قد رجعت إلى الفندق أم لا؟

- السيدة ذات الثوب المشجَّر؟ لا يا سيدي، لم أرها. لقد ذهبَت صباح اليوم من ناحية الصخور في اتجاه الكهف.

فردّ الشاب: أعرف، أعرف، لقد سبحنا كلنا هناك سوياً ثم تركَتنا عائدة، ولم أرَها بعد ذلك. لا يمكن أن تستغرق كل هذا الوقت؛ فالصخور هناك ليست خطرة، أليس كذلك؟

فردّ الصياد: المسألة تتوقف على الطريق الذي تسلكه. أفضل طريقة هي أن تصاحب شخصاً يعرف المكان.

وكان الصياد يقصد شخصه بالطبع فراح يتوسع في تلك النقطة، ولكن الشاب قاطعه بغير مجاملة وأسرع عائداً إلى الفندق ونادى زوجته في الشرفة قائلاً: مرغريت، كارول لم تعُد! غريب هذا فعلاً!

فلم أستطع أن أسمع ردّ مرغريت، ولكن زوجها أضاف قائلاً: على أية حال لا يمكننا الانتظار أكثر من هذا، فلنتابع السير إلى بنريثار. هل أنت مستعدة؟ سأدير السيارة.

ثم أدار السيارة، وبعد قليل مضت بهما السيارة مبتعدة.

وجمعتُ أدوات الرسم وذهبت إلى الفندق الصغير وأخذت أفحص بلاط الحارة بإمعان، فلم تكُن هناك بقع دم بالطبع بل كان ما رأيته لوناً من خداع البصر والخيال، ومع ذلك لم أشعر بالراحة والسكينة. وفي وقفتي تلك سمعت صوت الصياد عن كثب منّي يقول وهو يتفرس فيّ بصورة غريبة: هل ظننتِ يا سيدتي أنك رأيت بقع دم هناك؟

ولما أومأت إيجاباً قال: هذا شيء غريب، غريب جداً! عندنا عرّافة هنا تقول إنه إذا شاهد أحدٌ تلك البقع الدموية يقع حادث وفاة في خلال أربع وعشرين ساعة.

أُصبتُ بدهشة بالغة في حين مضى الصياد يقول: هناك لوحة أثرية في الكنيسة عن وفاة...

ولكني شكرته بحزم ودرت على عقبيّ عائدة إلى الكشك الذي استأجرته، وما كدت أصل إليه حتى لمحت على البعد

المرأة المدعوّة كارول آتية في طريق الممرّ الصخريّ، وكانت مسرعة في سيرها، وبدا لي مشهدها -في ظلال الصخور القائمة- أقرب إلى زهرة قرمزية سامة، وكانت قبعتها بلون الدم، ولكني انتزعت نفسي من تلك الأوهام بقوة. لا شك أن الدم قد سيطر على خيالي وحواسّي!

ثم سمعت فيما بعد صوت سيارتها فتساءلت: تُرى هل هي ذاهبة إلى بنريثار أيضاً؟ لكنها سلكت الطريق اليساري في الجهة المقابلة، ووقفتُ أراقب السيارة تزحف صاعدة في طريق التل حتى غابت عن نظري، فلم أتمالك أن تنفست الصعداء، فقد عاد الهدوء إلى القرية من جديد.

وعندما توقفت جويس عند ذلك الحد من القصة قال ريموند وست: إذا كان هذا هو كل شيء فسأصدر حكمي على القصة فوراً. المسألة كانت بالنسبة إليك يا جويس مجرد عسر هضم، وظهور بقع أمام العينين بعد الوجبات...

فتجاهلَت جويس هذا الأسلوب التهكمي واستطردت تقول: لم تنتهِ القصة بعد، ولا بد أن تسمعوا البقية. لقد قرأت في الصحف بعد يومين اثنين مقالاً تحت عنوان «حادث محزن بسبب السباحة». وجاء في المقال أن السيدة داكر زوجة القبطان دنيس داكر غرقت في البحر عند كهف لاندير على مسافة من الشاطئ، وكانت قد نزلت مع زوجها في الفندق هناك وقتها ونزلا إلى البحر للسباحة، ولكن هبّت رياح باردة فخرج القبطان داكر من البحر بسبب برودة الجو وذهب مع بعض النازلين في الفندق للعب في الملعب القريب. أما زوجته فقد قالت إن الطقس محتمَل بالنسبة لها وذهبت وحدها إلى الكهف. ولمّا

لم تعُد فقد انزعج زوجها وذهب مع رفاقه يبحثون عنها لدى الشاطئ، فوجدوا ملابسها قرب إحدى الصخور، ولكنهم لم يعثروا على أثر للسيدة المذكورة، ولم تظهر جثتها إلا بعد نحو أسبوع عندما قذفتها الأمواج إلى الشاطئ. وقد وُجد في رأسها أثر ضربة حدثت قبل الوفاة، وكان الرأي السائد هو أن رأسها اصطدم بصخرة تحت الماء وهي تقفز للغطس، وحسب تقديري فالوفاة لا بد قد حدثت بعد نحو أربع وعشرين ساعة من وقت رؤية بقع الدم التي ذكرت لكم أمرها.

وهنا قال السير هنري: أنا أعترض؛ ليست هذه قضية بوليسية، بل قصة من قصص العفاريت والأشباح، والظاهر أن الآنسة جويس أصبحت وسيطة.

ولمّا لم تجد جويس بين الموجودين من يناصرها التفتت في النهاية إلى الآنسة ماربل مستنجدة، فابتسمت السيدة العجوز قائلة: أنا أنظر إلى الموضوع من زاوية معيّنة، وهي زاوية الملابس. ليس من العدل يا عزيزتي جويس أن تطرحي قضية تتعلق بالملابس النسائية على الرجال، خصوصاً وأن تغيير الملابس بسرعة وبطريقة متعاقبة كان له تأثير كبير في القضية. يا لها من امرأة قاسية شريرة ويا له من رجل أشدّ قسوة وشراً!

فحدقت إليها جويس وهتفت: هل عرفتِ الحقيقة يا آنسة ماربل؟

فقالت الآنسة ماربل: الحقيقة يا عزيزتي أسهل بالنسبة لي وأنا جالسة هنا مستريحة أكثر مما كانت لك وأنت فنانة عُرضة للتأثر بالجوّ من حولك، أليس كذلك؟ جلوسي هنا وأنا أشتغل بإبرتي يُمكّنني من رؤية الحقائق.

ثم تركت الإبرة ونظرت إليهم وقالت: لقد سقطت بقع الدماء على البلاط من رداء السباحة المعلَّق في الشرفة، ونظراً لأن رداء السباحة كان أحمر اللون فالجناة أنفسهم لم يدركوا بالطبع أن هناك بقع دماء... مساكين!

وهنا قال السير هنري: معذرة يا آنسة ماربل، لكن هل تعرفين أنني ما زلت غير فاهم؟ يبدو أنكِ أنت والآنسة جويس تعرفان المقصود، ولكننا -معشر الرجال- ما زلنا في ظلام.

فقالت جويس: سوف أخبركم بنهاية القصة. لقد حدث بعد ذلك بسنة أنني كنت في أحد المصايف البحرية الصغيرة منشغلة برسم اللوحات عندما استرعى نظري شيء خُيّل إلى أنه تكرر أمامي من قبل؛ فقد رأيت شخصين، رجلاً وامرأة، يقفان على الرصيف أمامي ويسلّمان على شخص ثالث كان امرأة ترتدي ثوباً به أزهار قرمزية صارخة، وسمعت الرجل يقول لتلك المرأة: كارول، يا للمصادفة السعيدة! تصوري أننا نتقابل هنا بعد كل هذه السنين! ألا تعرفين زوجتي؟ يا جوان، هذه صديقة قديمة من أصدقائي، الآنسة هاردنغ.

وفي الحال عرفت الرجل. كان دنيس نفسه الذي التقيتُ به في فندق راشهول، أما زوجته فكانت مختلفة، أعني أنها كانت جوان بدلاً من مرغريت، ولكنها كانت تماثلها في صغر السن والسذاجة. بدا لي وقتها أني سوف أُجَنّ؛ فقد أخذ الثلاثة يتكلمون عن رغبتهم في السباحة.

وأقول لكم ما فعلت وقتها. لقد اتجهت إلى مركز الشرطة مباشرة غير عابئة بما قد يبدو لهم من جنوني، ومن حسن الحظّ أنني أحسنتُ صنعاً بذهابي إلى الشرطة؛ فقد وجدتُ

هناك واحداً من رجال اسكتلانديارد كان قد جاء من أجل هذه المسألة بالذات، ويبدو أن الشرطة كانت قد ارتابت في أمر دنيس داكر (وتبيّن أن هذا الاسم لم يكُن اسمه الحقيقي؛ فقد كان يتخذ أسماء مختلفة لكل مناسبة). اتضح أنه كان يتعرف بالفتيات، وهنّ عادة من النوع الهادئ الساذج الذي ليس له أصدقاء ولا أقارب كثيرون، وكان يتزوجهن ويقوم بالتأمين على حياتهن نظير مبالغ كبيرة، وبعد ذلك... يا إلهي، يا للفظاعة! المرأة المدعوّة كارول كانت زوجته الحقيقية وكانا يقومان دائماً بتنفيذ نفس العملية، وهذا ما سهّل للشرطة ضبطه؛ فقد بدأت شركات التأمين تشكّ في الأمر.

كان يختار أحد المصايف الصغيرة الهادئة مع زوجته الجديدة، ثم لا تلبث المرأة الأخرى أن تظهر فجأة، ويذهب الثلاثة للسباحة في البحر، وعندئذ تُقتَل الزوجة، فتقوم كارول بارتداء ملابسها وتعود معه في القارب إلى الفندق، وبعد ذلك يغادران المكان بعد السؤال عن كارول المزعومة، وعندما يصبحان خارج القرية تسارع كارول بارتداء ملابسها الأصلية المشجَّرة وتصبغ شفتيها باللون الأحمر القرمزي وتعود إلى فندقها ثم تواصل رحلتها في سيارتها الخاصة، وبعد ذلك يبحثان عن اتجاه تيارات البحر حيث تُكتشف الوفاة المزعومة عند نقطة السباحة التالية على امتداد الشاطئ، ذلك أن كارول كانت تلعب دور الزوجة هناك قرب إحدى الصخور، ثم تبتعد وهي مرتدية ملابسها المشجَّرة وتنتظر بهدوء إلى أن ينضمّ إليها زوجها.

أظن أنه عندما قتلا مرغريت المسكينة تناثر بعض الدم فوق رداء سباحة كارول، ونظراً للونه الأحمر لم يفطنا إلى ذلك كما

أشارت الآنسة ماربل، ولكن حين علّقاه في الشرفة كي يجفّ تساقطت منه بقع الدم. نعم، ما زالت الصورة ماثلة أمام عينَيّ.

قالت جويس هذه الكلمات وهي ترتعد، فقال السير هنري: نعم، تذكرت الآن هذه القصة. اسم الرجل الحقيقي كان ديفيس، وقد غاب عن ذاكرتي. لقد كان لقب داكر أحد أسمائه المستعارة، وكان الاثنان في منتهى المكر، وكان من بواعث الدهشة حقاً أنّ أحداً لم ينتبه إلى تغيير الشخصية، وأظن أن التعرف على الملابس أسهل من التعرف على الوجوه كما أشارت الآنسة ماربل. لكنها كانت خطة بارعة إلى حد بعيد؛ فعلى الرغم من أننا شككنا في أمر ديفيس هذا إلا أننا لم نستطع إثبات الجريمة ضده لشدة احتياطه في انتحال شخصيات يستطيع إثبات وجودها بعيداً عن مكان الجريمة.

وعند ذلك التفت ريموند إلى الآنسة ماربل وقال لها متعجباً: أخبريني يا عمتي، كيف تتوصلين إلى استنتاجاتك الرائعة؟ لقد عشتِ حياة هادئة في الريف، ومع ذلك لا أرى أيّ حادث يثير دهشتك!

فقالت الآنسة ماربل: أنا أجد دائماً أن الحوادث تتشابه في هذه الدنيا؛ فهناك مثلاً السيدة جرين التي دفنَت خمسة أطفال وكان كل منهم مؤمَّناً على حياته، وطبيعي أن الاشتباه يحدث في مثل هذه الحالات.

ثم هزّت رأسها وأضافت قائلة: هناك قدر كبير من القسوة والشر في حياة الريف ذاتها، ولعلكم تدركون يوماً ما -أيها الشباب- أن الدنيا مليئة بالقسوة والشر.

* * *

الفصل الخامس

لغز الوصية

تنحنح المحامي باتريك وبدأ حديثه لأعضاء الندوة قائلاً: ربما كانت قصتي هذه متواضعة بالقياس إلى قصصكم الشائقة، ولكنها رغم ذلك محبوكة العقدة، ومن حسن الحظ أنني أعرف حلها الصحيح.

فقالت الآنسة ماربل وهي تهزّ إبرة التطريز في وجهه بين ابتسام أعضاء الندوة الليلية التي رأيناها في الفصول السابقة: لا نريد ألغازاً قانونية تتوه العقول في فهمها.

فطمأنها المحامي وبدأ حديثه قائلاً: هي قصة أحد موكليّ، وسوف أسميه سيمون كلود، وكان رجلاً واسع الثراء يقطن في بيت كبير لا يبعد عن منطقتنا كثيراً، وكان له ابن وحيد قُتل في الحرب تاركاً طفلة صغيرة تُوفّيَت أمها لدى مولدها، وجاءت الطفلة للإقامة عند جدها الذي تعلّق بها إلى أبعد الحدود، ولا يمكنني أن أصف لكم حزن الرجل عندما أصيبت الحفيدة الصغيرة كريس بالتهاب رئوي أودى بحياتها الغضة.

و كان لسيمون كلود المسكين أخ مات حديثاً في ظروف منكودة، فأحضر سيمون كلود أبناء أخيه للإقامة في بيته، وكانوا بنتين هما: كريس وماري، وولداً هو جورج. ورغم أن الرجل المُسنّ كان عطوفاً وسخيّاً حيال أبناء أخيه، إلا أنه لم يُسبغ عليهم تلك المحبة الخالصة التي كان يختصّ بها حفيدته الصغيرة. وعلى أية حال فقد هيّأ عملاً لجورج في بنك قريب، وتزوجَت

كريس صيدلياً نابغاً يُدعى فيليب غارود. أما ماري، التي كانت معروفة بالهدوء والانطواء، فقد أقامت في البيت ترعى عمها. وظلت الأمور تسير على هذا النحو الهادئ.

ويحسُن بي أن أضيف إلى هذا أن سيمون كلود جاءني بعد وفاة حفيدته الصغيرة وكلفني بإعداد وصية جديدة تقضي بأن تؤول ثروته إلى أبناء أخيه بنسبة الثلث لكل منهم.

تتابعت الأيام على هذا النحو إلى أن التقيت ذات يوم بجورج كلود واستفسرت منه عن عمه الذي لم أكُن قد رأيته منذ مدة، وما كان أشدّ دهشتي عندما قال لي الشاب مستاء: ليتك تستطيع أن تردّ الصواب إلى عمي سيمون؛ مسألة تحضير الأرواح تزيد حاله من سيّئ إلى أسوأ.

وأخبرني بالقصة فقال إن عمه بدأ يهتم بتلك المسألة إلى أن التقى بوسيطة أمريكية تُدعى السيدة بورواديس سبراغ، استطاعت أن تتسلط عليه وأخذت تتردد على البيت حتى أصبحت إقامتها فيه شبه دائمة، وكانت تعقد جلسات تحضير الأرواح لاستحضار روح الحفيدة كريس التي كان الجد مفتوناً بها إلى حد الهوس. ومع أنني من المحايدين في موضوع تحضير الأرواح إلاّ أن ما سمعته من جورج كلود جعلني أعتقد أن السيدة بورواديس سبراغ هذه محتالة خادعة إلى أقصى حد، وأن الرجل العجوز -رغم دهائه في مسائل الأعمال والمال- فريسة سهلة لأمثالها بسبب افتتانه بحفيدته الميتة.

وتابع المحامي: وعندما قلبت الأمر على مختلف وجوهه أيقنت أن تأثير السيدة سبراغ على العمّ العجوز قد يؤدي في النهاية إلى الإضرار بأبناء أخيه. وهكذا تذرعتُ بأول فرصة

وقمت بزيارة سيمون كلود، فوجدت السيدة سبراغ متربعة في البيت عزيزة مكرَّمة، وما كاد نظري يقع عليها حتى تحققت من مخاوفي؛ كانت امرأة قوية البنية في متوسط العمر ترتدي ملابس زاهية، ووجدتها تحشو كلامها بالحديث عن «أعزائنا الذين فارقونا»، إلى غير ذلك من العبارات المنتقاة.

كان لها زوج يقيم معها في المنزل يُدعى إلسالوم سبراغ، وهو رجل نحيل كالح الوجه زئبقي النظرات، وقد انتهزتُ أول فرصة سانحة فانفردت بسيمون كلود وفاتحتُه في الموضوع بحذر، فوجدته ممتلئاً حماسة إذ قال إن بورواديس أعجوبة أرسلَتها إليه السماء استجابة لدعواته، وهي لا تبحث عن المال بل كل سعادتها ومتعتها أن تخفّف الحزن عن قلب مكلوم، وقد بدأ ينظر إليها كابنة له.

ثم انتقل من ذلك إلى التفصيلات فراح يشرح لي كيف سمع صوت حفيدته كريس وهي تتكلم، وكيف هي سعيدة بوجودها مع أبويها، بل كيف أصبح الأب والأم يحبان السيدة سبراغ العزيزة. ولما سألتُه إن كان مطمئنّاً إلى السيدة سبراغ تلك، راح يدافع عنها بحرارة وقوة. وفي النهاية انصرفتُ من عنده وأنا غير مرتاح بتاتاً ولا أعرف كيف أتصرف. وبعد طول تفكير وتدبّر كتبتُ إلى فيليب غارود زوج بنت أخيه (كما تَقدّم) فشرحتُ له القصة مبيّناً خطر سيطرة مثل تلك الدجّالة على تفكير العجوز ومشاعره، واقترحتُ عليه أن يتصل بعم زوجته وأن يستعين إذا أمكن بأخصائي من الموثوق بهم في المسائل الروحانية.

وكان غارود سريعاً في الإجابة؛ فقد رأى ما لم أرَه، وهو أن الرجل العجوز في حالة صحية دقيقة، وأدرك أنه لا يمكن

أن يترك الأمور على ما هي عليه وإلا حُرمت زوجته وأختها وأخوها من الميراث الذي هو حقهم الشرعي. وخلال أسبوع زار عمّ زوجته بصحبة البروفسور لونغمان العالم والمتخصص في الروحانيات، وكان حجة في هذا المجال وشخصية محترمة، ولكن النتيجة كانت مؤسفة؛ فالعالم الروحاني لم يستطِع -بعد جلستين- أن يجزم بشيء قاطع، وإن أشار على غارود في رسالة له باستقدام وسيطة أخرى من الموثوق بهن.

والواقع أن سيمون كلود لم يكد يطّلع على تلك الرسالة حتى استشاط غضباً وقال إنها مؤامرة للإساءة إلى السيدة سبراغ التي يعدّها قديسة؛ فقد جاءت إليه في أحلك ساعات حياته ومنحته السلوى والراحة، وهو مستعدّ لمخاصمة أهل البيت جميعاً تمسّكاً بهذه التي يعدها أغلى من أيّ إنسان في الدنيا!

وبتأثير هذه القضية تأثرَت صحّة العجوز وتدهورت حالته حتى لم يعُد يفارق الفراش. وقد حدث بعد يومين من رحيل غارود أن تلقّيتُ دعوة عاجلة من سيمون كلود لمقابلته، فأسرعت إليه حيث وجدته قد اشتدّ به المرض فعلاً، وقد قال لي وهو يلهث: أشعر أن نهايتي قريبة يا باتريك، ولكني أريد قبل أن أموت أن أقوم بواجبي نحو المخلوق الوحيد الذي منحني من الفضل ما لم يمنحه لي أيّ إنسان آخر في الدنيا... أريد إعداد وصية أخرى.

فقلت له: بالتأكيد، إذا أعطيتني تعليماتك الآن قمت بإعداد الوصية التي تريدها وأرسلتُها إليك.

فقال العجوز: هذا لا ينفع. كيف تقول هذا يا رجل وربما لا

أعيش سواد هذه الليلة؟! لقد كتبتُ هنا ما أريد، ويمكنك أن تقول لي إن كان سليماً.

وأخرج من تحت الوسادة قصاصة ورقية مكتوبة بقلم الرصاص أوصى فيها بمنح مبلغ خمسة آلاف جنيه لكل من ابنتَي وابن أخيه، وتخصيص باقي الثروة الطائلة لبورواديس سبراغ امتناناً وتقديراً.

لم أسترح لهذا، لكنه كان هو الواقع، فلم يكن ثمة مجال لاتهامه بخلل في قواه العقلية؛ فقد كان سليم العقل كأيّ إنسان من هذه الناحية. لم يلبث سيمون كلود أن ضغط على الجرس واستدعى اثنتين من الخدم هما إيما جونت وصيفته الخاصة التي كانت في خدمته مدة طويلة وتفانت في تمريضه والطاهية لوسي. وقد بادرهما سيمون قائلاً وهو يحدّق إليهما بنظراته الحادة: أريد أن تشهدا على وصيتي. هاتي قلمي الحبر يا إيما.

فأطاعته إيما وتقدمت إلى المكتب، لكنه استوقفها قائلاً: ليس الدرج الأيسر. ألا تعرفين أن القلم في الدرج الأيمن؟

فقالت إيما وهي تُبرِز القلم: بل القلم هنا يا سيدي!

فقال العجوز متأففاً: إذن فلا بد أن تكوني قد وضعتِه خطأ في آخر مرة. أنا لا أطيق وضع الأشياء في غير مكانها الصحيح.

وأخذ القلم ونسخ الوصية في ورقة أخرى بمساعدتي وتنقيحي، ثم وقّع عليها بإمضائه، ووقّعَت أيضاً كل من إيما والطاهية لوسي، وبعد ذلك طويتُ الوصية ووضعتها في مظروف مستطيل أزرق. وقبل أن نترك الغرفة قال لي باسماً رغم شدة إعيائه: سأموت الآن مرتاح البال بعد أن فعلت ما كنت أريد.

ونظرَت إليّ إيما جونت مستطلعة كأنما تستفهم إن كان يمكنها أن تترك الغرفة، فأومأت إليها أطمئنها فخرجَت، ولكن بعد أن انحنت والتقطت المظروف الأزرق الذي سقط منّي في أثناء انشغالي وردّته إليّ، فوضعتُه في جيبي وخرجَت هي على الأثر.

ونظر إليّ سيمون كلود بعد انصراف الوصيفة قائلاً: أراك مستاء يا باتريك، أنت متحيّز متحامل مثل غيرك.

فقلت له: المسألة ليست مسألة تحامل أو تحيّز، أنا لا أعارض أن تَهَب السيدة سبراغ منحة مناسبة اعترافاً منك بجميلها، لكنّي أقول لك صراحة يا كلود إن حرمان من هم من دمك ولحمك من الميراث إيثاراً لإنسانة غريبة عنك هو عمل خاطئ.

وخرجتُ من الغرفة بعد أن سجّلت احتجاجي على ذلك التصرف، وخرجَت ماري كلود من غرفة الجلوس وقابلتني في الصالة قائلة: هلاّ شربتَ الشاي قبل انصرافك؟ تفضل معي.

وقادتني إلى غرفة الجلوس حيث كانت المدفأة موقَدة ترسل دفئاً مغرياً، ثم ساعدتني في خلع معطفي حين دخل أخوها جورج إلى الغرفة، فأخذ المعطف ووضعه فوق مقعد في أقصى الغرفة ثم انضمّ إلينا قرب المدفأة حيث جلسنا نشرب الشاي، وفي أثناء الحديث أثار جورج موضوعاً متعلقاً بأملاك كان عمه قد كلّفه ببحثها، ولكنه لم يكن مرتاحاً للقيام بتلك المهمة، واستطلع رأيي في صددها؛ فانتقلنا بعد الشاي إلى حجرة المكتب للاطّلاع على الأوراق الخاصة بالموضوع، وصحبَتنا ماري لهذا الغرض، وبعد ربع الساعة تأهبتُ للانصراف.

ولمّا تذكرت أنني نسيت معطفي في غرفة الجلوس مضيت إليها لأخذه فوجدت في الغرفة السيدة سبراغ وحدها، وكانت منحنية على الأرض قرب المقعد الذي تركتُ معطفي فوقه، وبدت كأنما تفعل شيئاً في كسوة المقعد، وما إن دخلت حتى نهضَت وقد احمرّ وجهها، وقالت بلهجة من يشكو من شيء: هذه الكسوة غير سليمة، وفي إمكاني أن أصنع واحدة أفضل منها.

ومهما يكن فقد تناولتُ المعطف وارتديته، وفي أثناء ذلك لاحظت أن المظروف الأزرق المحتوي على الوصية كان قد سقط من جيبي ورأيته مُلقى على الأرض؛ فأعدته إلى جيب المعطف وسلّمت وانصرفت.

والآن سأصف لكم بدقة ما فعلتُه في المكتب عند وصولي إليه. لقد خلعت المعطف وأخذت الوصية من جيبه، وكنت لا أزال ممسكاً بالمظروف عندما دخل الكاتب وقال لي إن أحد الزبائن يطلبني في الهاتف، ولما كانت وصلة الهاتف في مكتبتي معطّلة فقد تركت المظروف على المكتب وتبعت الكاتب إلى المكتب الخارجي حيث بقيتُ نحو خمس دقائق منهمكاً في الحديث الهاتفيّ، وعندما خرجت وجدت الكاتب ينتظرني قائلاً: لقد جاء السيد سبراغ لمقابلتك يا سيدي فأدخلته مكتبك.

فعدت إلى غرفة مكتبي حيث وجدت السيد سبراغ جالساً قرب المكتب، وبعد التحية والمقدمات أخذ يتحدث عن زوجته وعن نفسه بإفاضة مؤكّداً على استقامتها وبعدها عن كل مأرب، وكنت أستمع إليه بفتور. وانصرف السيد سبراغ في النهاية شاعراً

بأنه فشل في مهمته، ولما تذكّرت أنني تركت المظروف على المكتب أخذته وختمته بالشمع ووضعته في خزانتي.

وتمهل المحامي باتريك هُنَيهة ثم استطرد يقول: والآن أصل إلى عقدة القصة. لم ينقضِ شهران على ذلك حتى مات سيمون كلود، ولن أستفيض في الكلام عمّا حدث بعد ذلك، ولكنني أختصر فأقول إننا عندما فتحنا المظروف الأزرق المحتوي على الوصية وجدناه يحتوي على ورقة بيضاء!

وتوقف المحامي وأخذ يتفرس في وجوه الضيوف حوله بنظرات لا تخلو من الاستمتاع، ثم استطرد قائلاً: أنتم تقدّرون هذه النقطة بالطبع. لقد تركت المظروف المختوم بالشمع في خزانتي شهرين ولم يكن من الممكن أن يعبث به أحد في أثناء ذلك. والآن، من يمكن أن تكون الفرصة سنحت له لذلك؟ ومن كانت له مصلحة في أن يفعل ذلك؟ هذه هي المعضلة التي أطرحها عليكم، ويسرّني أن أستمع إلى آرائكم.

وكم كانت دهشتهم جميعاً شديدة عندما سمعوا الآنسة ماربل تضحك ضحكة طويلة عالية وكأن هناك ما يُثير الضحك عندها إلى أبعد حد، فقال ابن أخيها ريموند: ماذا جرى يا عمتي؟ ألا يمكن أن نشاركك هذه الفكاهة؟

فقالت الآنسة ماربل: هذا شرَك من جانب المحامي يريد أن يوقعنا فيه، أليس كذلك يا سيدي المحامي العزيز؟

فقال المحامي وقد لمعت عيناه: تُرى هل توصلتِ إلى شخصية الفاعل؟

فكتبت الآنسة ماربل بعض كلمات في قصاصة ورق

وطوتها وناولتها إلى المحامي، فبسط باتريك الورقة وقرأ ما كُتب فيها ونظر إلى الآنسة ماربل بنظرات تَجلّى فيها الإعجاب ثم قال لها: عجباً يا صديقتي العزيزة! هل هناك شيء يمكن أن يَخفى عليك؟

فأجابت الآنسة ماربل: لقد عرفت العقدة منذ كنت طفلة صغيرة، وقد كنت أتسلى بهذه اللعبة شخصياً.

وهنا قال السير هنري مدير شرطة اسكتلانديارد السابق: يبدو أن مثل هذه القصة بعيدة عن اختصاصي، والظاهر أن السيد باتريك يخبئ لنا عقدة قانونية طريفة.

فقال المحامي: عفواً، هذه فكرة قديمة لا أحابيك فيها. لا تُلقوا بالكم إلى ما تقوله الآنسة ماربل؛ فهي تنظر إلى الأمور بطريقتها الخاصة.

فقال ريموند بشيء من الامتعاض: في قدرتنا أن نصل إلى الحقيقة؛ فعناصر الموضوع ظاهرة البساطة. لقد تداول خمسة أشخاص ذلك المظروف، فالواضح من بيانات المحامي أن سبراغ وزوجته كان بإمكانهما العبث بالمظروف، ولكن الواضح كذلك أنهما لم يفعلا؛ فلا مصلحة لهما في العبث بالوصية التي غُيّرت لمصلحتهما. ويبقى بعد ذلك ثلاثة أشخاص، وهُم ماري وأخوها جورج والوصيفة إيما جونت. وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية خفّة اليد وما يفعله الحواة أمام نظر، الناس فمن السهل على جورج أن ينتزع الورقة من المظروف ويستبدلها بأخرى في الفترة التي حمل فيها المعطف إلى أقصى ركن في الغرفة.

فقالت جويس: أما أنا فأظن أن ماري هي التي فعلت هذا.

لقد أسرعت الوصيفة إليها وأخبرتها بما يدور، وأخذَت منها مظروفاً آخر واستبدلته بالمظروف الأصلي.

أما السير هنري فقد هز رأسه قائلا: أنا أختلف معكما في الرأي؛ فالحواة يفعلون ما أشار إليه ريموند على المسرح وفي الروايات فقط، أما في الحياة الواقعية فهذا شيء مستحيل، خصوصاً تحت نظر شخصية حريصة مثل صديقنا الأستاذ باتريك المحامي الفطن. ولكن عندي فكرة، وهي مجرّد فكرة لا أكثر.

ثم اعتدل وهو يقول موضحاً فكرته: نحن نعرف أن المحامي استدعى البروفسور لونغمان، ولم يُفصح عن وجهة نظره بصراحة، ومن المعقول أن تؤدّي هذه الزيارة إلى إثارة قلق ومخاوف السيدة سبراغ وزوجها، خصوصا إذا كان سيمون كلود لم يكاشفهما بأمرها، ممّا جعلهما ينظران إلى الموضوع من زاوية أخرى، فربما كانا يظنان أن سيمون كلود أعدّ من قبلُ وصية تفيد بورواديس سبراغ، وأن تلك الوصية قد تؤدي إلى حرمانهما من كل شيء نتيجة لما قاله البروفسور لونغمان للعجوز، أو نتيجة لتأثير فيليب غارود عليه باعتبار أبناء أخيه أقرب الناس إليه رحماً. في هذه الحالة تحاول السيدة سبراغ استبدال الوصية، وفي أثناء هذه المحاولة فاجأها المحامي بعودته إلى الغرفة فلم يُتِح لها وقتاً لقراءة الوصيّة الحقيقية وأسرعت بحرقها قبل أن يكتشف المحامي ضياعها.

لكن جويس قالت: ما كانت لتحرقها قبل قراءتها.

فقال السير هنري: أنا معك في أن نظريتي ضعيفة فعلاً. ما رأيك أنت يا دكتور بندار؟

فراح القس العجوز يقول: ليست لديّ أفكار واضحة في هذا الشأن، وإن كنت أظنّ أن استبدال الوصية قد تم بمعرفة السيدة سبراغ أو زوجها للسبب الذي أشار إليه السير هنري، وإذا كانت لم تقرأ الوصية إلا بعد انصراف السيد باتريك فقد وجدت نفسها في ورطة؛ فهي ما كانت لتستطيع أن تعترف بفعلتها، وربما عمدت عندئذ إلى وضع الوصية بين أوراق السيد سيمون كلود لكي يُعثَر عليها بين أوراقه بعد وفاته. أما كيف لم يوجد للوصية أثر فهذا ما لا أعرف له جواباً. لكن لا يبعُد أن الوصيفة إيما جونت عثرت على الوصية مصادفة وعمدت إلى حرقها شفقة على أبناء شقيق العجوز.

فقالت جويس: أظن أن نظرية الدكتور بندار أقرب الحلول للقضية.

ولكن المحامي هزّ رأسه قائلاً: سأتابع القصة من النقطة التي توقفتُ فيها. لقد وجدت نفسي في حالة ذهول وحيرة مثلكم، وأظن أني ما كنت لأستطيع الوصول إلى الحقيقة لولا مناسبة كان لها الفضل في استنارتي؛ فقد ذهبت بعد نحو الشهر من ذلك لتناول العشاء عند فيليب غارود زوج بنت الأخ، وفي سياق الحديث الذي دار في أثناء الطعام ذكر لي قصة طريفة وصلت إلى علمه منذ وقت قصير. قال لي: أحب يا باتريك أن أختصك بهذه القصة لتبقى بيننا بالطبع.

ولما طمأنتُه قال لي: لي صديق كان يتوقع ميراثاً طيباً من أحد أقاربه، ثم أحزنه أن يعلم أن هذا القريب ينوي تغيير وصيته لصالح شخص لا يستحقها بحال، وأنا أعرف عن صديقي هذا أنه لا يدقق كثيراً فيما يدقق فيه الناس، وكانت في المنزل وصيفة

متفانية في رعاية مصالح الطرف الشرعي، إن جاز هذا التعبير، فما كان من عمّ صديقي إلاّ أن زوّدها بتعليمات مبسَّطة جداً وأعطاها قلماً مملوءاً، وكان عليها أن تضع ذلك القلم في دُرج مكتب سيدها، ولكن غير الدرج المعتاد حفظ القلم فيه، فإذا طلب سيدها منها أن تشهد على توقيعه على أية وثيقة وكلّفها بإحضار قلمه فعليها ألاّ تُحضر له القلم الحقيقي ولكن عليها أن تحضر القلم الآخر المستحضَر خصيصاً والذي كان مطابقاً له. هذا ما كان عليها أن تفعله، ولم يزوّدها فيما عدا ذلك بأية بيانات أخرى. ولما كانت إنسانة متفانية فقد نفّذت تعليماته بإخلاص.

وبعد أن توقف فيليب غارود هنيهة قال: هل رأيت الفكرة؟ لقد كان القلم المستحضَر مملوءاً بالحبر الطيّار، وهو محلول من النشا المذاب في الماء والمضاف إليه نقط اليود، وهذا الخليط يكوّن سائلاً أزرق أسود غامقاً، ولكن الكتابة به تتلاشى تماماً بعد أربعة أو خمسة أيام.

وما إن فرغ المحامي باتريك من كلامه حتى ضحكت الآنسة ماربل قائلة: الحبر الطيار، أنا أعرفه تماماً؛ وكثيراً ما لعبت به وأنا طفلة.

وأدارت الآنسة ماربل نظرها في وجوه الضيوف ببشاشة وهزت إصبعها في وجه باتريك قائلة: ورغم ذلك فالقصة شَرَك من جانب المحامي لإيقاعنا في المصيدة كما قلت، وأظن أنني لم أقع في المصيدة.

* * *

الفصل السادس

الزوج الميّت

كان الإلحاح شديداً من جانب الضيوف لكي تقصّ عليهم الآنسة ماربل غوامض تلك القصة التي حدثت لابنة أختها الآنسة ميبل في القرية التي كانت مسقط رأسها، ولهذا هزّت رأسها امتثالاً قائلة: لقد حدثت هذه القصة منذ خمسة عشر عاماً، ولهذا فقد انتهت ملابساتها الآن لحسن الحظ ونسيها الناس وأصبحتُ الآن في حِلّ من السكوت عنها.

كانت ميبل ابنة أختي فتاة طيّبة لطيفة، ولم يكن يعيبها سوى نزعاتها الدرامية، وقد تزوجت وهي في الثانية والعشرين رجلاً يُدعى جوفري دنهام كان على النقيض منها في حدة طبعه، وقيل إن الجنون كان وراثياً في أسرته حتى خفتُ ألاّ ينتهي هذا الزواج بخير. لكن ميبل أصرت على الزواج به، ولم يستطِع أحد أن يفعل شيئاً للحيلولة دون إتمامه نظراً لما تعلمونه من عناد الشاب ونزواته.

انقضت عشر سنوات لم أسمع فيها إلا القليل عن ميبل، وبعد تلك المدة علمتُ أن السيد جوفري دنهام مات فجأة تاركاً لها كلّ ثروته؛ فهما لم ينجبا أبناءً من هذا الزواج. ولم تمضِ إلا ثلاثة أشهر حتى تلقيتُ من ميبل رسالة هستيرية تتوسّل إليّ فيها لأذهب إليها لأن أمورها ساءت إلى حدّ لم تعُد تستطيع معه الاحتمال.

لم يكُن بوسعي أن أرفض ذلك النداء المؤثر؛ فسافرت إلى

القرية ووجدت ميبل في حالة اضطراب شديد. وكانت تسكن في قصر ريفيّ فخم وعندها وصيفة وطاهية وممرضة لخدمة والد زوجها العجوز المريض المحنَّك العقل. صحيح أنه كان هادئاً ومهذَّباً في سلوكه، إلا أنه كان -كما قلتُ- سليل أسرة بها لوثة جنون وراثي. وقد بذلتُ جهداً جهيداً لمعرفة أسباب اضطرابها حتى علمت منها أن جيرانها أصبحوا يقاطعونها وينفرون من مقابلتها ورؤيتها إلى حد أنها باتت تفكر معه في بيع القصر والانتقال إلى مكان آخر. واختتمت ميبل قائلة: لكن لماذا أُطرد من القصر والقرية على هذه الصورة؟ أنا لم أفعل شيئاً أستحق بسببه هذه القطيعة الشنيعة!

فقلت لها: كم تثيرين شديد دهشتي يا عزيزتي ميبل! لكن ما سبب كل هذا؟

فأجابت ميبل: السبب هو تلك الشائعات الظالمة التي يُشيعونها عني؛ فهم يظنون أنني دسست السم لزوجي.

كنت موقنة تماماً أن ميبل أعجز الناس عن دس السم لأي إنسان، ولكنني قلت لها: لا دخان بلا نار كما يقولون يا عزيزتي ميبل، ولذلك أرجو أن تشرحي لي ما الذي حدا بهم إلى مثل هذه الظنون القاسية.

فأجابت ميبل بكلام متقطع أنه لا سبب لهذا سوى موت زوجها جوفري دنهام ميتة مفاجئة، إذ كان في حالة طبيعية وقت العشاء في تلك الليلة ثم أصيب بنوبة مرضية حادة في أثناء الليل، وقد دُعي الطبيب لإسعافه، ولكن المسكين لفظ أنفاسه بعد دقائق من وصول الطبيب، وقد ساد الظن بأن وفاته كانت نتيجة

أكل عيش غراب مسموم.

قلت لها: أظن أن ميتة فجائية مثل هذه يمكن أن تُطلِق الألسنة، لكن من المؤكَّد أن هناك أسباباً أخرى ساعدت على إطلاق الشائعات. هل حدثت مشادة بينك وبين زوجك وقتها؟

فأجابت ميبل: أعترف أننا تشاجرنا صباح ذلك اليوم المشؤوم على مائدة الفَطور.

فسألتها: وقد سمع الخدم ذلك الشجار فيما أظن، أليس كذلك؟

- لم يكونوا وقتها في الغرفة، ولكن لا يبعُد أنهم كانوا قريبين منها.

- ماذا كان سبب الشجار؟

فردّت ميبل: لم يزِد عن كونه شجاراً عادياً مما يقع مثله دائماً، لكن كلاً منّا لم يَكن يُطيق الآخر وقتها، حتى إننا تبادلنا السباب والشتائم.

فسألتُها: وهل هذا كل شيء أم ثمة أشياء أخرى؟

فأجابت ميبل ممتعضة: ماذا تقصدين بهذا السؤال يا خالتي؟

- أقصد ما قلتُ، إذا كنتِ فعلتِ حماقة من أيّ نوع فلا تُخفي شيئاً عنّي؛ أنا أريد مساعدتك بكل طاقتي.

فأجابت ميبل بيأس بالغ: لا شيء، ولا يمكن أن يساعدني سوى الموت.

فقلت لها مواسية: ضعي ثقتك في العناية الإلهية يا عزيزتي ميبل. أنا أعرف تماماً أن هناك شيئاً آخر تحاولين إخفاءه عنّي.

وما زلت بها حتى اعترفت لي في النهاية وقالت: لقد ذهبتُ صباح ذلك اليوم إلى الصيدلية واشتريت مقداراً من الزرنيخ، وطبعاً وقّعت في سجلّ الصيدلية على شراء المادة السامة، وكان من الطبيعي أن يتكلّم الصيدلي.

- مَن طبيب الأسرة؟

فردّت ميبل: الدكتور رولنسون.

لم أكُن أعرف ذلك الطبيب إلا سمعاً، ولمّا ذهبتُ إليه بعد قليل وجدتُه رجلاً مُسنّاً ضعيف البصر والسمع، وقد فهمت منه أن الميت كان قد فقد النطق عند وصوله إليه، وكان عاجزاً عن ابتلاع أيّ دواء، ولفظ أنفاسه بعد دقائق.

وبدا لي أن الطبيب كان مطمئناً تمام الاطمئنان إلى شهادة الوفاة التي حررها، لكنني لم أستطِع أن أعرف منه إن كان مؤمناً بها، أو إن كان اطمئنانه وليد العناد والتمسك بالرأي.

وعلى إثر عودتي من زيارة الطبيب واجهت ميبل بصراحة وسألتُها عن سبب شرائها للزرنيخ، فانخرطت في البكاء على الفور قائلة: كنت أريد أن أضع حدّاً لحياتي؛ كنت في أشد حالات التعاسة، وبدا لي أن الأفضل أن أموت وأستريح.

فسألتها: هل لا يزال عندك هذا الزرنيخ؟

- لا؛ فقد تخلصت منه.

وجعلتُ أفكّر برهة ثم قلت لها: وماذا حدث عندما أُصيبَ زوجك بتلك النوبة؟ هل أرسل يستدعيك إلى جانبه؟

فهزّت رأسها قائلة: لا، لقد ضرب الجرس بعنف، ويبدو أنه فعل هذا أكثر من مرة، وأخيراً سمعَته دوروثي الوصيفة فأيقظَت الطاهية وذهبتا إليه، وعندما رأته دوروثي فزعت منه؛ فقد كان محموماً وكان يهذي بشدة؛ فتركت الطاهية الغرفة وأسرعت تبلغني، فقمت من فراشي وذهبت إليه، وقد رأيت في الحال خطورة حالته. ومن سوء الحظ أن الممرّضة الخاصة الآنسة بروستر التي ترعى الأب العجوز كانت في راحتها الأسبوعية تلك الليلة، فلم يكن هناك مَن يعرف كيف يتصرف في مثل ذلك الموقف، ولكنني أرسلت الوصيفة لاستدعاء الطبيب، وبقيتُ أنا والطاهية إلى جانبه، لكن حالته كانت من البشاعة بحيث لم أحتمل البقاء؛ فأسرعت عائدة إلى غرفتي الخاصة وأغلقت الباب على نفسي.

فقلت لها: كانت هذه أنانية شنيعة من جانبك يا ميبل، ولا شك أن الطاهية نقلت هذه الحكاية للناس، فكان هذا من العوامل التي ساعدت على سوء موقفك أكثر وأكثر.

ومهما يكن فقد تركتُ ميبل وانتقلت إلى استجواب الخدم عن حالة مخدومهم تلك الليلة، فأجمعَت الوصيفة والطاهية على أنه كان يعاني آلاماً مبرحة وأنه كان عاجزاً عن الابتلاع ولم يكُن يستطيع الكلام إلا بصوت مختنق وكانت كلماته أقرب إلى الحشرجة ولا يُفهَم منها شيء.

- وماذا كان يقول في تلك الحشرجة؟

– كلاماً مبهَماً عن السمك... كوم من السمك! كلام أقرب إلى الهذيان بالطبع، وبدا لنا وقتها أنه فقد صوابه.

كان هذا كلّ ما استطعت استخلاصه من الطاهية والوصيفة، وأخيراً اجتمعت بالممرضة الخاصّة الآنسة بروستر وسألتُها عن معلوماتها فقالت: من سوء الحظ أنني لم أكن موجودة تلك الليلة؛ يبدو أن الجميع عجزوا على عمل أيّ شيء لإسعافه قبل حضور الطبيب.

فقلت أجسّ نبضها: أظن أنه كان محموماً، لكن ليس هذا عرضاً من أعراض التسمم الغذائي، أليس كذلك؟

فأجابت الممرضة: هذه مسألة تقديرية.

ولمّا سألتُها عن حالة مريضها العجوز والد المتوفّى هزّت رأسها قائلة: صحته جيدة من الناحية البدنية، ولكن حالته العقلية تتدهور بسرعة، وسبق لي أن أشرت على السيد والسيدة دنهام بنقله إلى مصحّة عقلية، ولكن السيدة دنهام رفضت هذا رفضاً باتّاً.

لم أستغرب موقف ميبل من هذه الناحية؛ فقد كنت أعرف طيبة قلبها ورقة مشاعرها إلى أبعد الحدود. لم يكن أمامي بعد ذلك سوى الالتجاء إلى الحل الوحيد لوضع حدّ للشائعات التي تحاصر ميبل المسكينة، فطلبنا التصريح باستخراج جثة زوجها وتشريحها رسمياً، وقد تم ذلك فعلاً، ولكن النتيجة لم تكن مُرضية بالقدر الذي كنت أرجوه؛ فقد كانت خلاصة التقرير الطبي بهذا النص: «ليس هناك شيء يبيّن كيفية ميتة المتوفّى».

وهكذا شعرت بأنني عاجزة أو أكاد عن الوصول إلى

الحقيقة وكشف القناع عن مصرع الزوج، إلى أن هدتني التجربة إلى حيلة كنت الجأ إليها دائماً كلما ضاقت بي السبل، وقد تضحكون أنتم يا شباب هذا الجيل عندما أقول لكم مثل هذا الكلام؛ فقد كنت ألجأ إلى ترتيل دعاء قصير في مثل تلك الظروف، وأجدني دوماً أوفَّق بعد ذلك إلى الرأي السديد. ويومها تمتمت بدعائي وأنا سائرة في الشارع الرئيسي في القرية مستغرقة في التفكير وقد أغمضت عينَيّ، وما إن فتحتهما حتى ألفيت نفسي أمام محلّ بائع السمك وليس في واجهته سوى سمكة واحدة من نوع الحدوق.

والآن يا أصدقائي ماذا تظنون قد طرأ على ذهني عند رؤيتي السمك؟ لقد تذكرت في الحال ما ذكرَته الطاهية والوصيفة عن الكلمات التي تَفوّه بها المتوفّى عن السمك، واقتنعت اقتناعاً جازماً بأن ثمة نوعاً من الحلّ لذلك اللغز الغامض المحيّر في كلمات المتوفّى؛ ولذلك عدت إلى القصر وقد عقدت العزم على التوصّل إلى الحل المنشود.

واجتمعت بكل من الطاهية والوصيفة على انفراد، ثم سألت الطاهية إن كانت متأكدة من أن مخدومها قال فعلاً كلاماً عن كومة السمك، فأجابت بأنها متأكدة كل التأكّد، فسألتُها: هل كانت هذه كلماته بالنص أم إنه ذكر نوعاً معيّناً من السمك؟

فأجابت الطاهية: الحقيقة أنه ذكر نوعاً معيّناً من السمك، لكنني لا أتذكره الآن. كوم من... ليتني أتذكر! لم يكُن نوعاً من السمك المعتاد وجوده على المائدة.

فسألتها: أنا معك في هذا؛ فزميلتك قالت أيضاً إن سيدها

ذكر نوعاً من السمك المتوحش.

فردّت الطاهية: آه، تذكرت الآن. كان اسم السمك غريباً فعلاً، كان صعب النطق، وكل ما أتذكره أنه كان يبدأ بحرف الباء.

* * *

تركتُ الخادمتين وقمت بمحاولة أخيرة لاستكمال نظريتي، ومن حسن الحظ أن منزلنا الريفي كان فيه مجلَّد كبير عن الطب وعن العقاقير المختلفة في المكتبة التي تركَتها والدتي، وكانت نظريتي (التي يحقّ لي أن أزهو بها) هي أن جوفري دنهام لم يكُن يتكلم عن كومة من السمك بل كان يتكلم عن ترياق للتسمم ويحاول النطق باسمه.

وبعد البحث طويلاً في المجلَّد الطبي توقفت عند كلمة «بيلوكاربين». إنها كلمة صعبة النطق ولا شك أن رنينها يبدو غريباً على سمع طاهية محدودة المعرفة، ولكنها تقع في الأذن وقع عبارة «بايل أُف كارب» (أي «كومة من سمك كارب»)، وهي العبارة التي قالت الطاهية إن سيّدها كان يرددها.

وقرأتُ في المجلد كلّ ما جاء عن مادة البيلوكاربين وتأثيرها على العينين وغير ذلك من المعلومات التي لا تتصل بالقضية، إلى أن وصلت أخيراً إلى العبارة الحاسمة التي تقول: «وقد جرّب الأطباء بنجاح عقّار البيلوكاربين كترياق ضدّ التسمم بالأتروبين». والواقع أنني لم أكَد أقرأ هذه العبارة حتى سطعت الحقيقة في ذهني كالشهاب البارق. أنا لم أفكر قط أن مثل جوفري دنهام يمكن أن يفكر في الانتحار؛ لقد كانت

كل الظروف تشير إلى عكس هذا تماماً، فقررت أن أقوم بآخر محاولة لتثبت صحة نظريتي.

أنا لا أعرف شيئاً عن الطب والعقاقير بالطبع، ولكن الذي أعرفه أنني عندما شعرت مرة بضعف في بصري وصف لي الطبيب قطرة فيها سلفات الأتروبين، ولهذا صعدت من فوري إلى غرفة السيد دنهام العجوز وقلت له بغير لفّ ولا دوران: سيّد دنهام، لقد عرفتُ كل شيء. لماذا سمّمتَ ابنك؟

راح العجوز يحدق إليّ طويلاً، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكاً. كانت ضحكة جنونية شريرة من أسوأ ما سمعت في حياتي، حتى إنني شعرت بقُشَعريرة تسري في جسدي! وأخيراً راح يقول: نعم، لقد صفّيتُ حسابي مع جوفري. كان ينوي إبعادي من هنا، كان يريد إرسالي إلى المصحة. لقد سمعتهما يتكلمان في هذه المسألة. إن ميبل فتاة طيبة وقد وقفَت في صفّي، لكنني كنت أعرف أنها لن تستطيع مقاومة جوفري وأنه سوف ينفّذ غرضه في النهاية. لقد أنهيتُ حياة ولدي الطيب الحنون... تسللت إلى غرفته في الليل وكانت المسألة في غاية السهولة؛ فقد كانت الممرضة بروستر غائبة، وكان ولدي الحبيب نائماً، وكان من عادته أن يضع كوب الماء بجانب فراشه؛ إذ كان يستيقظ في منتصف الليل ويشرب الكوب. ولكنني أفرغت الكوب، ثم أفرغت زجاجة القطرة في الكوب محلّ الماء. كنت واثقاً أنه سوف يستيقظ ويشرب الكوب قبل أن يعرف ما فيه، وهذا ما فعله بالضبط. ثم حضروا عندي في الصباح وأخبروني بما حدث مترفّقين؛ فقد كانوا خائفين أن يُفجعنِي النبأ.

ثم قالت الآنسة ماربل لضيوفها: لا بأس، هذه هي نهاية

القصة، وبالطبع فالأب العجوز المنكود أُدخِل مستشفى الأمراض العقلية، والواقع أنه بهذه الصفة لا يُعتبر مسؤولاً عما فعله. ولمّا عُرفت الحقيقة شعر الناس بالعطف على ميبل المسكينة والرثاء لها، وأخذوا يفعلون كل ما في وسعهم لتعويضها عن الشكوك والظنون الظالمة التي صدرت منهم في حقها. ولكن لولا أن جوفري عرف المادة التي ابتلعها وأخذ يحاول أن يذكر لكل من رآه أن يُحضِر الترياق (وهو مادة البيلوكاربين) دون إبطاء لما عُرفت الحقيقة ولما استطعتُ أن أكشف النقاب عن سر موته المفاجئ.

أعتقد أن هناك أعرضاً محدَّدة للأتروبين كاتساع حدقتَي العين مثلاً، وقد كان الدكتور رولنسون الذي حرر شهادة الوفاة مُصاباً بضعف الإبصار كما قدّمتُ، ففاته أن يسجّل هذه الأعراض التي كان يمكن أن تغيّر مجرى القضية وقتها، ولكن هكذا شاء القدر!

* * *

الفصل السابع

الزهرة الزرقاء

نزل السير هنري كيترنغ مدير شرطة اسكتلانديارد السابق ضيفاً على صديقه الكولونيل آرثر بانتري وزوجته، وتكريماً له أقامت الأسرة مأدبة عشاء دُعي إليها أصدقاء الأسرة المقرَّبون، وكانت بينهم الآنسة ماربل التي رشّحها السير هنري لتكون في عداد المدعوّين. والواقع أن السيدة بانتري رحّبت بوجود هذه الضيفة على مائدة العشاء؛ وقالت لمدير الشرطة السابق: وأظن أنه يمكننا أن نعرض عليها حكاية آرثر عن العفاريت بعد العشاء، وسيكون من دواعي امتناني أن تجد لنا الآنسة ماربل حلاً لهذه القضية الغريبة!

قال السير هنري: لم أعرف أن آرثر يؤمن بالعفاريت!

- هو لا يؤمن بها فعلاً، وهذا ما يثير قلقه الشديد. لقد حدثت القصة لصديقه جورج بريتشارد، وقد اقترنت بفاجعة أليمة. على أية حال فسوف تعرف التفصيلات حول مائدة العشاء.

وجلس الضيوف حول المائدة يستمعون بعد العشاء إلى الكولونيل آرثر بانتري المورَّد الوجه وهو يقصّ عليهم القصة بناء على طلب زوجته فراح يقول: لا أظن أن بينكم من يعرف جورج بريتشارد، جورج شخصية طيبة فاضلة، وزوجته... لا بأس، لقد ماتت المسكينة. يكفي أن أقول إنها لم تكن تُهيّئ لجورج شيئاً من الراحة عندما كانت على قيد الحياة؛ فقد كانت «المريضة

الخالدة» كما يقولون.

وكانت إلى جانب ذلك كثيرة النزوات متسلطة غير محتمَلة، وكانت تشتكي من كل شيء من الصباح إلى المساء، وكان المفروض أن يظل جورج عبداً لها يمتثل لأوامرها ونواهيها، ولو كان زوج غير جورج لقطع رأسها ببلطة منذ زمن بعيد. أليس كذلك يا عزيزتي دوللي؟

فأجابت زوجته بلهجة حادة: لقد كانت امرأة شنيعة! ولو كان جورج قطعِ رأسها بالبلطة وكانت هناك امرأة بين المحلفين في محاكمته لبرّأت ساحته تماماً.

فاستطرد الكولونيل بانتري قائلاً: لست أدري تماماً كيف بدأت القصة، لكن السيدة بريتشارد كانت تؤمن بالمنجّمين والعرّافين وقارئي البخت، ولم يمانع جون في هذا رغبة منه في مجاراتها حتى يتقي شر شكواها التي لا تنتهي. كان يتعاقب على المنزل ممرضات عديدات لرعايتها، ولكنها كانت لا تلبث أن تبدّلهن بعد أسابيع معدودة، وكانت بينهن ممرضة شابة لها شغف بهذا اللون من التنجيم والعِرافة، وقد تعلقَت السيدة بريتشارد بها كثيراً، غير أنها لم تلبث أن انقلبت عليها وأصرّت على طردها، ثم استعادت ممرضة أخرى كانت عندها من قبل، وهي الآنسة كوبلنغ، وكانت أكبر سناً وذات تجارِب في معالجة ذلك اللون من النزوات. وقال جورج في وصف الآنسة كوبلنغ تلك إنها حسنة وذات كفاءة؛ فقد كانت تعرف كيف تُوقِف نزوات زوجته عند حدها.

كانت السيدة بريتشارد تتناول طعام الغداء في غرفتها بصفة

دائمة، وقد اتفقت الآنسة كوبلنغ مع جورج على أن تكون نوبة الخدمة بعد الظهر، وأصبح من حق الممرضة -حسب الاتفاق- أن تنتهي من الخدمة من الساعة الثانية إلى الرابعة بعد الظهر، ولكنها كانت مجامَلةً لجورج تؤجّل انصرافها إلى ما بعد الساعة الخامسة، موعد الشاي، لكي يستمتع بهوايته في لعب الغولف.

حدث ذات يوم أن أخبرت الآنسة كوبلنغ جورج بأنها ذاهبة في وقت راحتها لزيارة أخت لها في حي غولدن جيت، ولمّا لاحظَت ضيقه قالت له: السيدة بريتشارد لن تفتقدنا بعد ظهر اليوم؛ ستكون عندها ضيفة تسليها، وهي زاريدا قارئة الطالع.

فلم يتمالك جورج أن تأوه قائلاً: ربّاه! أهي عرّافة جديدة؟

فقالت الآنسة كوبلنغ: جديدة تماماً، وأظنها من طرف الممرضة كارستر التي سبقتني. السيدة بريتشارد لم ترَها بعد، وقد طلبت منّي أن أكتب إليها، وحددَت الموعد بعد ظهر اليوم.

فقال جورج: لا بأس على أية حال، سأذهب لألعب الغولف.

وعند عودة الزوج إلى المنزل وجد السيدة بريتشارد في حالة هياج شديد، وكانت مستلقية كعادتها على ما سمّاه جورج بأريكة المرض وبين يديها زجاجة أملاح النشادر التي اعتادت استنشاقها على فترات، وما كادت السيدة بريتشارد تُبصِر زوجها حتى هتفت قائلة: ألم أُقُل لك من قبل إن هذا المنزل لَا يضمّ لنا

خيراً؟ لقد أكدَت العرّافة هذا عند دخولها فقالت على الفور: هنا شيء ينتظر، سرّ وخطر، أشم روائحه!

فردّ عليها جورج ضاحكاً: لم يكن من الحكمة أن تقول هذا.

فأغمضت الزوجة عينيها ثم تنشقت الزجاجة طويلاً قائلة: آه، كم تكرهني يا جور! سوف تضحك لو رأيتَني أموت.

فاحتجّ جورج على هذا الكلام وجعل يطيّب خاطرها، ولمّا سألها عمّا قالته العرّافة عن هذا أجابت قائلة: لم تقُل كثيراً، ولكنها عندما لمحت بعض أزهار البنفسج في مزهرية أمامي هتفت تقول لي: أبعدي هذه الأزهار، لا أزهار زرقاء؛ الأزهار الزرقاء مصدر هلاك لك، تذكّري هذا.

ثم أضافت السيدة بريتشارد تقول لزوجها: أنا أشعر بتشاؤم غريزي منه.

فلم يكذّبها الزوج ولم يناقض كلامها وإنما سألها: ما أوصاف زاريدا العرّافة؟

فراحت تقول بحماسة: شعرها أسود ملفوف في دوائر فوق الأذنين، عيناها نصف مغمضتين وحولهما دوائر سوداء كبيرة، وقناع أسود على رقبتها وذقنها، ولهجتها أجنبية، وهي إسبانية فيما أظن.

فقال جورج بلهجة المرح: هذه مستلزمات المهنة كالعادة.

وفي الحال أغمضت الزوجة عينيها قائلة: لقد عاودني

المرض. اضرب الجرس للممرضة؛ فسخريتك تهدني وتتلف أعصابي.

وبعد يومين جاءت الممرضة كوبلنغ تخبر جورج أن زوجته في حالة اضطراب شديد بسبب رسالة تلقّتها، وعندما خفّ إلى جانبها ناولته الرسالة التي كانت معطّرة ومكتوبة بخط أسود كبير بالنص التالي: «لقد رأيت مستقبلك، احذري قبل أن يفوت الأوان، احذري القمر بدراً. زهرة الربيع الزرقاء هي النذير، وزهرة الهوليهوك الزرقاء تعني الخطر، وزهرة الغاردنيا الزرقاء تعني الموت».

وعندما همّ الزوج بأن يقهقه ضاحكاً لمح الممرضة كوبلنغ تومئ إليه محذّرة فقال لزوجته: لماذا أرادت المرأة تخويفك يا ماري؟ على أية حال لا توجد زهرة ربيع ولا زهرة غاردنيا زرقاء.

ولكن السيدة بريتشارد أخذت تنتحب وتقول إن أيامها أصبحت معدودة. وعندما خرجت الممرضة كوبلنغ مع جورج قالت له بلهجة الجد: أنا لا أؤمن بمسألة قراءة الطالع؛ فهذا كلام فارغ، ولكنّ أمر هذه العرّافة يحيّرني؛ فقد قالت السيدة بريتشارد إن زاريدا بدت لها وكأنها غير غريبة عنها!

وبعد أربعة أيام وقع الحادث الأول. ولكي أشرح لكم الموقف أقول إن غرفة السيدة بريتشارد كانت حوائطها مكسوّة بالورق الذي تكثر فيه الأزهار الملوَّنة حتى لتبدو الغرفة وكأنها حديقة، وبينها بالطبع أنواع من زهرة الربيع الصفراء والقرمزية. وقد حدث ذات صباح أن قرعت السيدة بريتشارد الجرس

بعنف، وعندما أسرع إليها أهل المنزل جميعاً وجدوها في أشدّ حالات الانفعال وهي تشير إلى ورق الحائط؛ فبين مجموعات زهرة الربيع شاهدوا زهرة زرقاء فعلاً! وكان السؤال هو: ألم تكن زهرة الربيع الزرقاء موجودة في مكانها هكذا طول الوقت؟ كان هذا هو رأي جورج والممرضة، لكن السيدة بريتشارد لم تأخذ بهذا الكلام بأية حال، وأكدت إنها لم تلاحظ لون الزهرة الأزرق إلاّ في ذلك الصباح. وكان القمر ليلتها بدراً؛ فتولاها الاضطراب والجزع على الفور.

وهنا تدخلت السيدة بانتري قائلة: لقد قابلتُ جورج بريتشارد في ذلك اليوم فعلاً وأخبرني بما حدث، وأذكر أنّي قابلت أيضاً صديقتنا جين إينستو وأخبرتُها بذلك، والغريب أنّي وجدتها مرتاحة إلى تلك النتيجة، وقالت: "الزوجة التي تقلب حياة زوجها على تلك الصورة الكريهة تستحق أن يصيبها الفزع حتى الموت."، وقالت لي كلاماً لا أنساه، قالت: "أجل، جورج المسكين يستحق العطف؛ فهو شخصية جذابة." وكانت الممرضة السابقة (أعني الممرضة الحسناء المدعوّة كارستيرز) تراه كذلك، وكان ذلك سبب المشاحنة التي حدثت بينها وبين السيدة بريتشارد، واستغنت عنها على الأثر. ولقد استنكرتُ بالطبع ذلك الحديث من جين.

فقالت الآنسة ماربل بهدوء تعقيباً على ما سمعته: لك حق يا عزيزتي. هل جين إينستو فتاة جميلة؟ أظنها تلعب الغولف.

- نعم، إنها بارعة في كل الألعاب، وهي جميلة وجذّابة، وكان من رأينا جميعاً أن الظروف لو اختلفت عمّا كانت عليه لكانت هي وجورج خير من يليقان لبعضهما.

فقالت الآنسة ماربل: هل كانا صديقَين؟

- نعم، إلى أبعد الحدود.

فقال الكولونيل بانتري لزوجته بلهجة الشكوى: هل يمكن يا دوللي أن تسمحي لي بإتمام القصة؟

فأجابت السيدة بانتري مستسلمة: يريد آرثر أن يعود إلى قصص العفاريت.

واستطرد بانتري يقول: في الواقع لقد زادت حالة السيدة بريتشارد سوءاً قرب نهاية الشهر التالي؛ فقد جاءت بتقويم ووضعت علامة على التاريخ الذي يصير فيه القمر بدراً، وفي تلك الليلة استدعت إلى غرفتها الممرضة وجورج، وطلبت منهما أن يفحصا حالة ورق الحائط جيداً. كانت أمامهم زهور الغاردنيا الحمراء والقرمزية وليس بينها زهور زرقاء، وعندما انصرف جورج من الغرفة سارعت بإغلاق الباب على نفسها، ولما كان الصباح وجدت بين أزهار الغاردنيا زهرة فوق رأسها تحوّلت إلى اللون الأزرق؛ فذهل جورج، ولكنه أبى أن يأخذ المسألة مأخذ الجد، وقال إنها مجرَّد مزحة. وتجاهل دليل الباب المغلق واكتشاف زوجته لذلك التغيير قبل دخول أحد إلى الغرفة، حتى الممرضة كوبلنغ.

ورغم هذا كله لم يستسلم جورج لإلحاح زوجته بالانتقال إلى منزل آخر رغم انه كان ينزل دائماً على رغبتها، واعتبر المسألة كلها من قبيل الخزعبلات والأوهام!

وهكذا تعاقبت أيام الشهر التالي، وكفّت السيدة بريتشارد عن الشكوى والاحتجاج وكأنها لفرط إيمانها بالخرافات

أصبحت مستسلمة لمصيرها. ولم تكفّ عن ترديد الرسالة التي تلقتها «زهرة الربيع الزرقاء نذير، وزهرة الهوليهوك الزرقاء تعني الخطر، وزهرة الغاردنيا الزرقاء تعني الموت»! وأصبحت وهي ممدَّدة فوق أريكتها تُطيل النظر في أزهار الغاردنيا القرمزية والحمراء قرب الأريكة! كانت الحالة مثيرة للأعصاب، لدرجة أن الممرضة سرَت إليها العدوى؛ فقد ذهبت إلى جورج قبل حلول موعد البدر ترجوه أن يبعد السيدة بريتشارد عن ذلك المكان، ولكنه غضب وصاح في وجهها قائلاً: لو استحالت جميع الأزهار فوق الحائط إلى شياطين زرقاء فهي لن تقتل أيَّ إنسان!

فردّت كوبلنغ: ربما تقتل هذه المرة؛ فالصدمة قد قتلت أناساً قبل الآن.

- كلام فارغ.

والحق أن جورج كان عنيداً إلى حد ما، ولعله كان يظن في دخيلة نفسه أن زوجته تُحدث تلك التغييرات استسلاماً لنزوات هستيرية. إلى أن جاءت اللَيلة المشؤومة؛ فقد أغلقت السيدة بريتشارد الباب على نفسها، وكانت في أتمّ حالات الهدوء حتى قلقت الممرضة لحالتها، ولمّا أرادت أن تعطيها حقنة منشّطة رفضت رفضاً تامّاً.

وفي الصباح لم يحدث قرع عنيف للجرس، وكان من عادة السيدة بريتشارد أن تستيقظ في الثامنة صباحاً، فلما كانت الثامنة والنصف دون أن تصدر إشارة من ناحيتها طرقت الممرضة بابها عالياً، وعندما لم تجد ردّاً أسرعت إلى جورج وأصرّت على فتح

الباب بالقوة، فكان ما أرادت. وكانت نظرة واحدة من الممرضة كوبلنغ إلى الجسم الساكن كافية، وقد طلبت من جورج استدعاء الطبيب هاتفياً، ولكن سبق السيف العزل؛ فقد قرر الطبيب أن السيدة بريتشارد لا بدّ أن تكون قد ماتت منذ ثماني ساعات على الأقل! وكانت زجاجة أملاح النشادر بيدها على الفراش، وشوهدت إحدى زهرات الغاردنيا القرمزية على الحائط قرب الفراش وقد استحالت إلى اللون الأزرق!

عندئذ تدخّل السير هنري قائلاً وقد قطب وجهه: ألم توجد تفصيلات أخرى؟

فهزّ الكولونيل بانتري رأسه نفياً، ولكن زوجته سارعت تقول: والغاز؟

فقال الكولونيل بانتري: نعم، عندما وصل الطبيب كانت هناك رائحة غاز خفيفة، وفعلاً وجد صنبور الغاز في المدفأة مفتوحاً قليلاً، ولكنه كان من القلّة بدرجة ليست لها أهمية.

- ألم يلاحظ السيد بريتشارد والممرضة رائحة الغاز عندما دخلا الغرفة أول مرة؟

- قالت الممرضة لقد لاحظت رائحة خفيفة، وقال جورج إنه لم يلاحظ الغاز، ولكن شيئاً جعله يشعر بالغرابة والانقباض، على أنه عزا ذلك إلى صدمة الموقف. وعلى أية حال لم يثبت حدوث تسمم بالغاز؛ فقد كانت الرائحة ضئيلة.

- وهل هذه نهاية القصة؟

- لا؛ فقد تناثرت الأقاويل بعد ذلك. سمع الخدم مثلاً

السيدة بريتشارد وهي تقول لزوجها إنه يكرهها، وإنه سوف يصفر لموتها، ومن ذلك قولها أيضاً إنها ترجو إذا ماتت فعلاً أن يعرف الجميع أنه قتلها، واقترن بهذا سوء حظ غريب؛ فقد تصادف أنه كان في اليوم السابق ذاته يخلط مادة مبيد للزنابير في الحديقة، وقد شاهده أحد الخدم وهو يفعل ذلك، ثم شاهده بعد ذلك وهو يحمل كوب لبن ساخن لزوجته، ثم تزايدت الأقاويل وانتشرت.

وكان الطبيب قد أعطى شهادة بأن الوفاة حدثت نتيجة صدمة أو هبوط في القلب أو أيّ تعبير طبي من هذا القبيل، ولكن نظراً للظروف التي اقترنت بالوفاة فقد رفع التماساً باستخراج الجثة من مدفنها لتشريحها، وتمّت الموافقة على الالتماس.

فقال السير هنري برصانة: وأذكر أن نتيجة التشريح جاءت سلبية، فكانت القضية أقرب إلى دخان بلا نار!

فقالت السيدة بانتري: الحكاية كلها غريبة جداً؛ فمثلاً قارئة البخت زاريدا، لم يعثروا على أحد بهذا الاسم في العنوان المفترض وجودها فيه!

فقال الكولونيل بانتري: لقد ظهرت مرة واحدة كأنما أقبلت من الفضاء، ثم تبخر كل أثر لها!

وأضافت السيدة بانتري: وأكثر من هذا أن الممرضة الشابة كارستيرز التي كان يُعتقد أنها هي التي أوصت بزاريدا أكدَت أنها لم تسمع حتى بوجودها.

وعندئذ قالت الآنسة ماربل بصوتها الرقيق: وهل تزوج

السيد بريتشارد والآنسة جين إينستو؟

فهزّ الكولونيل بانتري رأسه قائلاً: لقد... لقد توقعنا شيئاً من هذا القبيل، لكن مضت الآن سنة ونصف، ولا أعتقد أنهما يتقابلان بأية حال.

فقالت الآنسة ماربل: هذه نقطة هامة، هامة جدّاً.

فقالت السيدة بانتري: إذن أنت تظنين مثلما أظن. الحقيقة أن فكرة جامحة خطرت لي؛ فربما عمدت جين إينستو إلى التنكّر في زي قارئة البخت، لمجرد المزاح طبعاً، وربما كانت السيدة بريتشارد من البلاهة بحيث استسلمت للفزع الذي يؤدّي إلى الموت، فربما هذا ما تعنيه الآنسة ماربل.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها نفياً وقالت: لا يا عزيزتي، ليس هذا ما أعنيه، ولكن أحب أن ألفت نظركم إلى أشياء غابت عن أذهانكم. أولاً: أن السيد بريتشارد -كما تصفونه- كان جميلاً جذاباً. وثانياً: أنه لم يُعثَر على العرّافة في العنوان الذي ذكرته، في حين أن السيدة بريتشارد كانت قد أرسلت خطاباً إليها بذلك العنوان، وأن الممرضة هي التي كتبته.

فسألت السيدة بانتري: أتعنين الممرضة كارستيرز؟

فردّت الآنسة ماربل: لا، لا... بل أعني الممرضة الأخرى، كوبلنغ.

وغمغم الجميع باستغراب: الآنسة كوبلنغ!

- نعم، لقد خدمت السيدة بريتشارد من قبل، فلماذا قبلت العودة رغم إدراكها التام بطباع السيدة بريتشارد التي لا تُطاق؟

لقد عادت من أجل جورج بريتشارد الذي تُجمعون على أنه وسيم وجذاب وطيب القلب. والمعتاد أن مثل هذا الرجل يكون موضع الإعجاب أولاً، ثم الحب ثانياً. ولعلّ المسكينة ظنّت أن الطريق إلى قلبه ممهَّد بسبب حالة زوجته، ولم تكن تعرف بطبيعة الحال علاقته بالسيدة جين إنستو، فلما علمت بها -بعد فوات الأوان- بذلت كل ما في وسعها لتثير حول المسكين تلك الزوبعة من الاتهامات والشكوك، ولكنني أعتقد أن الشيء الوحيد الذي كشف سرّها أمامي هو الخطاب.

فسأل الجميع: أيّ خطاب؟

فقالت الآنسة ماربل: الخطاب الذي كتبته للعرّافة بناء على رغبة السيدة بريتشارد. لقد كتبت هي الخطاب بخط يدها، وكتبت طبعاً عنوان العرّافة على المظروف، وحددت للعرّافة (بناء على رغبة السيدة بريتشارد أيضاً) الموعد الذي تجيء فيه، فإذا كان البحث قد أثبت أنه لا توجد عرّافة بهذا الاسم، ولم يهتدِ إليها أحد في العنوان الذي قيل إنها مقيمة فيه، وإذا ثبت أن الآنسة كارستيرز الممرّضة السابقة أنكرت تماماً كل معرفة لها بعرّافة تُدعى زاريدا، أقول إذا ثبت هذا وذاك، فكيف وصل الخطاب إلى العرّافة المزعومة؟ وكيف جاءت في الموعد المحدَّد؟

نظرت الآنسة ماربل إلى الأوجه المحدقة إليها بدهشة ثم قالت مكملة: المعقول أن الآنسة كوبلنغ تظاهرت بكتابة الخطاب وتنكّرت هي في هيئة العرّافة المزعومة، ولعلكم تذكرون أن السيدة بريتشارد قالت إن في سَمْت تلك العرّافة شيئاً مألوفاً لديها. وكانت تلك خطوة جريئة من الآنسة كوبلنغ، لأنه كان هناك احتمال أن تتعرف عليها السيدة بريتشارد، ولكن

حتى لو تعرفت عليها فعلاً لزعمت الآنسة كوبلنغ أن الأمر كله دعابة للتسلية.

وعندئذ قال السير هنري: ولكن هل تريدين أن تقولي إن الآنسة كوبلنغ عمدت إلى تلك الحيلة لتملأ قلب السيدة بريتشارد بالفزع الذي يؤدي إلى موتها؟

فقالت الآنسة ماربل: لا يا عزيزي، الآنسة كوبلنغ كممرضة لا تستطيع أن تعتمد على شيء واهٍ كهذا، ومسألة التحذير والإنذار والزهور الزرقاء وما إلى ذلك لم تكن إلاّ نوعاً من التمويه أو الخداع الذي يُخفي الحقيقة.

فقال السير هنري: وما الحقيقة يا آنسة ماربل؟

فقالت الآنسة ماربل: لعلكم تعرفون جميعاً سمّ سيانيد البوتاسيوم الذي يستعمله البستانيون في قتل الحشرات الضارة كالزنابير، لا سيما في أيام الصيف الجميلة. هذا السم يشبه تماماً أملاح النشادر، ومعنى هذا أنه من الممكن وضعه في زجاجة المسكينة السيدة بريتشارد بدلاً من النشادر الحقيقية، وقد قال الكولونيل إن جورج شاهد زجاجة النشادر ملقاة بجانب زوجته الميتة ومفتوحة، وبطبيعة الحال أمكن للآنسة كوبلنغ في أثناء انشغال جورج في استدعاء الطبيب هاتفياً أن تستردّ الزجاجة الملقاة التي تحوي سيانيد البوتاسيوم وتضع مكانها زجاجة أخرى شبيهة بها تحتوي على أملاح النشادر، وهي عملية بسيطة يمكن أن تقوم بها في سرعة وخفة، كما يمكنها في الوقت نفسه أن تدير صمام أنبوبة غاز المدفئة قليلاً جداً حتى تحجب رائحة الغاز أية رائحة أخرى لأملاح سيانيد البوتاسيوم قد تكون باقية في الغرفة

بعد فتح الباب. وقد سمعت أن سم السيانيد لا يترك أثراً على الجسم إذا مضت مدة طويلة عليه، ولكني قد أكون مخطئة، ولعلها تكون قد وضعت شيئاً آخر في الزجاجة لا نعرفه.

- ولكن ماذا عن الغاردنيا الزرقاء وما إلى هذا؟

فأجابت الآنسة ماربل: لدى الممرضات دائماً ورق عباد الشمس المستعمَل في اختبارات التفاعل الكيميائي، أليس كذلك؟ لقد اشتغلتُ ممرضة في شبابي بضعة أشهر وأعرف أن ورق العباد الأزرق يتحول إلى الأحمر بالأحماض، والأحمر يتحول أزرق بالقلويات. من السهل جداً أن تلصق الآنسة كوبلنغ ورقة عباد حمراء على زهرة حمراء في ورق الجدار بالقرب من سرير السيدة بريتشارد، وعندما تستعمل هذه المسكينة أملاح النشادر القلوية يحوّل غاز الأمونيا القلوي المنساب منها تدريجياً لون ورقة العباد الحمراء الملصَقة على الزهرة الحمراء إلى اللون الأزرق، وهي طريقة في الواقع تدلّ على مكر عجيب وذكاء أعجب! وبطبيعة الحال لم تكُن زهرة الغاردنيا زرقاء عندما دخل جورج والممرضة الغرفة صباحاً بعد كسر الباب. لم يكن أحد في حالة يلاحظ معها زهور ورق الجدارن، بل كان الانتباه مركَّزاً على المتوفّاة، ولكن الملاحظة جاءت فيما بعد، أي بعد أن استبدلت الآنسة كوبلنغ زجاجة السم بزجاجة أملاح النشادر، وأعتقد أنها فتحتها برهة بجانب زهرة الغاردنيا فوق السرير الملتصقة عليها ورقة عباد حمراء.

وعندئذ قال السير هنري: أنت يا آنسة ماربل توضحين الغموض كما لو كنتِ هناك في مسرح الأحداث.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها وقالت: الذي يقلقني الآن هو موقف المسكين جورج وصديقته جين إنستو؛ فمن المحتمَل أن كلاً منهما يرتاب في أن الآخر عمل على قتل السيدة بريتشارد ولهذا يحاول أن يتجنبه، والحياة أقصر من أن تضيع سُدىً بسبب تلك الشكوك والوساوس.

ابتسم السير هنري قائلاً: لا داعي للقلق؛ فأنا احتفظ لك بمفاجأة في هذا الشأن. لقد تمّ إلقاء القبض أخيراً على ممرضة بتهمة قتل مريضة عجوز أوصت لها بمبلغ كبير من تركتها، وكانت وسيلة القتل هي وضع سيانيد البوتاسيوم بدلاً من أملاح روح النشادر التي كانت تستعملها العجوز. الممرضة هي الآنسة كوبلنغ نفسها، وقد كررَت نفس الطريقة في ارتكابها الجريمة الثانية. ومن يدري كم من الجرائم ارتكبَت قبل أن تقع بين أيدي العدالة؟ لا شك أن السيد بريتشارد حين يعرف هذه الحقيقة لن يتردد في إعادة العلاقة الطيّبة مع جين إنستو.

فقالت السيدة بانتري: ستكون العلاقة هذه المرة علاقة زواج بطبيعة الحال.

* * *

الفصل الثامن

العشاء القاتل

ألحّ الضيوف على السيدة بانتري أن تكون هي صاحبة القصة الغامضة هذه الليلة لكي يتنافسوا في حل غوامضها، وبعد تردد وتمنّع راحت تقول مستسلمة: كنّا وقتها ضيوفاً على السير أمبروز بيرسي المقيم في كوبنهام كورت، وذات يوم حدث أن اقتطع بعضهم من حديقة المنزل بطريق الخطأ كمّية من نبات قفاز الثعلب السامّ مع أعواد الكزبرة، وحُشيت بها البطة التي قُدّمت للعشاء؛ فأُصيب الجميع بنوبة شديدة ماتت بسببها فتاة مسكينة هي ربيبة السير أمبروز.

وعندما توقفت السيدة بانتري قال السير هنري مدير شرطة اسكتلانديارد السابق: حسناً، وماذا حدث بعد ذلك؟

- هذه هي كل القصة.

فقال السير هنري معاتباً: لا يمكن أن تكون هذه كل القصة يا عزيزتي! وإذا كنتِ بهذا تريدين إثارة فضولنا فأنا أقبل التحدي، وأقترح أن نقوم نحن بتوجيه الأسئلة، ما رأيك في أن تبدئي يا آنسة ماربل؟

فقالت الآنسة ماربل: أودّ أن أعرف شيئاً عن الطاهية؛ لا بد أن تكون مخلوقة غبية جداً أو عديمة الخبرة بالمرة.

فأجابت السيدة بانتري: لقد كانت مثال الغباء فعلاً، وقد بكت كثيراً بعد الفاجعة وقالت إن أوراق النبات قد اقتُطفت

من الحديقة وقُدّمت إليها باعتبارها حشوَ البط، وما كان لها أن تعرف غير ذلك.

فقالت الآنسة ماربل: هي إذن ليست من النوع الذي يفكر بنفسه.

وجاء دور الفنانة جين هيلر في توجيه الأسئلة فقالت: هل يمكن أن نعرف أبطال الحادث حسب الظهور على المسرح، كما نقول نحن أهل الفن؟

فراحت السيدة بانتري تعدّهم على أصابعها قائلة: السير أمبروز بيرسي المضيف، وسيلفا كين ربيبته التي ماتت في الحادث، ومودواي، وهي فتاة سمراء كريهة من نوع الفتيات اللاتي يحاولن فرض أنفسهن على المجتمعات، والسيد كورن خبير الكتب والمخطوطات القديمة الذي جاء لمناقشة مع السير أمبروز في تلك المسائل، وجيري لويمر جار السير أمبروز، والسيدة كاربنتر المتصابية.

فقال السير هنري: نريد بعد هذا صورة لكل واحد من هؤلاء، تكلمي أولاً عن السير أمبروز.

- كان يناهز الستين من عمره، ذا شخصية مرحة جذّابة، ولكنه كان معتلّ الصحة؛ فقد كان مصاباً بضعف في القلب اضطرّه لتركيب مصعد في المنزل، وجعله يبدو أكبر من سنه.

فقال السير هنري: والآن تكلمي عن الفتاة سيلفيا كين.

- كانت فتاة جميلة وافرة الحسن شقراء الشعر ناعمة البشرة، ولكنها كانت أقرب إلى الغباء منها إلى الفطنة.

- والسيدة كاربنتر المتصابية؟

- كانت أرملة في أوائل الخمسينيات مغرَمة بمصاحبة الطبقة الأرستقراطية، ولكنها كانت خاوية الوفاض.

- والسيد كورن؟

- كان رجلاً مُسنّاً متحمّساً إلى درجة الجنون فيما يخصّ المخطوطات والكتب القديمة، وخصوصاً اللاتينية، ولا أظن أن معرفة السير أمبروز به كانت حميمة.

- وجيري لوريمر الجار؟

- كان شاباً موفور الجاذبية، وكان خطيب سيلفيا، وهذا ما جعل للمأساة طابعها المحزن الأليم.

فقال السير هنري: وهل كانت خطبتهما منذ مدة طويلة؟

- منذ سنة تقريباً، وقد عارض السير أمبروز الخطوبة على أساس أن سيلفيا صغيرة السن، ولكن بعد فوات السنة مال إلى الموافقة، وقد كان عقد الزواج مقرراً بعد فترة قصيرة.

- وهل كان للخطيبة أيّ ثروة.

- لم تكن تملك أكثر من إيراد يبلغ نحو مئتَي جنيه في السنة.

وعندئذ قال السير هنري: الدور الآن على الدكتور لويد في توجيه الأسئلة.

فقال الطبيب العجوز الذي كان بين المدعوّين: اهتمامي يتركز في الناحية الطبية، وأودّ أن أعرف التقرير الطبي الذي

صدر في أثناء التحقيق.

فأجابت السيدة بانتري: كلّ ما أتذكره أن الوفاة حدثت بسم الديجيتالا.

فأومأ الدكتور لويد قائلاً: إن العنصر الفعّال في نبات قفاز الثعلب (وهو الديجيتاليس) يؤثّر على القلب، والواقع أنه دواء مفيد جداً في بعض حالات اضطرابات القلب، وهذه قضية غريبة جداً في الواقع، وما كنت أعتقد أن تناول أورق نبات قفاز الثعلب يمكن أن تنتج عنه إصابة مميتة! الأفكار السائدة عن أكل أوراق وثمار النباتات السامة هي أفكار مبالَغ فيها؛ فهي قد تؤدي فقط إلى ظهور أعراض التسمم، ولكنها لا تؤدي إلى الوفاة.

فقال السير هنري: لنبدأ الآن التحقيق في الجريمة.

فانتفضت جين هيلر قائلة: جريمة؟! لقد ظننته مجرَّد حادث عارض.

فأجاب السير هنري: لو أنه كان مجرد حادث لما تكلفَت السيدة بانتري عناء سرد القصة. في رأيي أنه حادث في الظاهر فقط، ولكن يكمن وراء الحادث عنصر جريمة، وأعتقد أن أوراق نبات الديجيتالين أو قفاز الثعلب هذه قد خُلطت بنبات الكزبرة عمداً وبعد معرفة ما سيكون نتيجتها، وما دمنا نستبعد الطاهية المعروفة بغبائها فالسؤال هو: مَن الذي قطف تلك الأوراق وقدّمها إلى المطبخ؟

فأجابت السيدة بانتري: سيلفيا نفسها هي التي حملت الأوراق إلى المطبخ، فقد كان من عملها اليومي أن تجمع السَلطات وما يماثلها من الحديقة، وكانت تشترك معها في ذلك

السيدة كاربنتر بحكم ضيافتها المستمرة في المنزل؛ فقد كانت بمثابة مرافقة لسيلفيا. وكان في الحديقة ركن خاص لنبات قفاز الثعلب ونبات الكزبرة، وهكذا فقد كان الخطأ مسألة طبيعية.

- ولكن هل اقتطفَت سيلفيا الأوراق بنفسها؟

- هذا ما لم يعرفه أحد، وإن كان هو المفترض.

فقال السير هنري: الافتراض شيء خطر.

فقالت السيدة بانتري: لكنني أؤكّد أن السيدة كاربنتر لم تكن هي التي اقتطفت أوراق النبات؛ لقد تصادف أنها كانت تتمشّى معي في الشرفة صباح ذلك اليوم بعد أن فرغنا من تناول طعام الفَطور، وقد نزلت سيلفيا إلى الحديقة وحدها، ولكنني رأيتها فيما بعد تسير مع مود واي وقد تأبّطت ذراعها.

فقالت الآنسة ماربل: إذن فقد كانت الاثنتان صديقتين حميمتين.

وعادت الآنسة ماربل تقول: وهل كانت مود واي ضيفة في المنزل منذ مدّة؟

فأجابت السيدة بانتري: منذ أسبوعين سابقَين.

فقالت الآنسة ماربل مرة أخرى: يبدو من لهجتك أن هناك شيئاً بشأن الفتاتين تحاولين كتمانه، أليس كذلك يا سير هنري؟

فقال مدير شرطة اسكتلانديارد السابق مؤمّناً على كلامها: صدقتِ يا آنسة ماربل، والواجب أن تقولي يا سيدة بانتري كل

ما تعرفينه دون أن تتحرّجي من شيء.

فراحت السيدة بانتري تقول: حسناً، لقد كانت المسألة هكذا، حدث في مساء نفس الليلة التي وقعت فيها الفاجعة أنني خرجت أتمشى في الشرفة، وكانت نافذة غرفة الجلوس مفتوحة، وحانت منّي التفاتة إلى الداخل فوقع نظري على جيري لوريمر يقبّل مودواي، ولم أعرف وقتها بالطبع إن كان هذا شيئاً عارضاً أو كان شيئاً آخر. الإنسان لا يستطيع الجزم في مثل هذه الأمور، ولكنّي كنت أعرف أن السير أمبروز لم يكن يحب جيري لوريمر، ولعلّ السبب أنه كان يعرف عنه تلك التصرفات. إنما هناك شيء مؤكّد، وهو أن تلك الفتاة مود واي كانت مغرَمة بجيري لوريمر، وأعتقد أيضاً أنهما كانا أليق ببعضهما من لوريمر وسيلفيا.

فقال السير هنري: أريد أن أوجّه سؤالاً سريعاً قبل أن تسبقني السيدة ماربل، أريد أن أعرف إن كان جيري لوريمر بعد الفاجعة قد تزوّج مود واي أو لم يفعل.

فأجابت السيدة بانتري: نعم، لقد تزوجها فعلاً بعد ستة أشهر.

فقال الكولونيل بانتري مداعباً زوجته: يا للمكر! فكرنا كلنا بعد بدء قصتك أنها بعظام مجرَّدة، والآن نرى العظام مكسوة باللحم!

فقال السير هنري معقّباً: امرأتان ورجل، الثلاثي البشري الخالد. هل هذا هو الأساس الذي قامت عليه قضيتنا؟

فبدأ الدكتور لويد يقول: لقد فكرت في القضية قبل كل

شيء، هل أُصبتِ أنت يا سيدة بانتري بنوبة المرض تلك الليلة؟

- لست أنا فقط، بل زوجي آرثر أيضاً وكل الضيوف.

- في رأيي أن من دبّر هذا الحادث إمّا أنه فعل هذا عشوائياً معتمداً على الحظ، أو بعامل الاستهتار دون مبالاة بحياة الناس، فأنا لا أكاد أتصور إنساناً يتصدّى عن عمد وتدبّر لتسميم ثمانية أشخاص بهدف التخلص من واحد بينهم!

فقالت جين هيلر: ألم يكُن محتمَلاً أن يسمّم نفسه أيضاً في عداد الجميع؟

فسألت الآنسة ماربل: هل تغيّب أحد عن العشاء تلك الليلة؟

فهزّت السيدة بانتري رأسها نفياً قائلة: كانوا كلهم هناك.

- فيما عدا السيد لوريمر يا عزيزتي؛ فهو لم يكن مقيماً في المنزل مع الضيوف، أليس كذلك؟

فقالت السيدة بانتري: صحيح، ولكنه تناول العشاء مع الجميع.

فقالت الآنسة ماربل: آه، هذا من شأنه أن يُوجِد فارقاً كبيراً في القضية كلها.

وقطّبت الآنسة ماربل وجهها مستاءة وغمغمت قائلة: لقد كنتُ غبية، غبية جداً في الواقع!

فقال السير هنري مخاطباً الطبيب: أعترف بأن النقطة التي

أثرتَها يا دكتور تقلقني؛ فما الذي كان يضمن أن الفتاة، والفتاة وحدها، يمكن أن تتناول من الطعام الكمية التي تكفي لقتلها؟

فأجاب الدكتور لويد: لا ضمان. الواقع أن هذا يجرّني إلى النقطة التي كنت أريد عرضها: لنفرض أن الفتاة لم تكن هي الضحية المقصودة. في حالات التسمم الغذائي النتيجة غير مؤكّدة بالمرة، ونحن إزاء عدة أشخاص يشتركون في لون واحد من الطعام، ماذا يحدث؟ واحد أو اثنان يشعران بانحراف، واثنان آخران يصابان بنوبة حادة، ولا شيء مؤكّد بعد ذلك، لكن هناك حالات يتدخل فيها عوامل أخرى. الديجيتالين دواء يؤثر تأثيراً مباشراً، وهناك شخص واحد في ذلك البيت يشكو من مرض للقلب، فماذا لو كان هو الضحية المختارة؟ ما لا يكون خطراً مميتاً على الآخرين يكون خطراً مميتاً بالنسبة إليه، وهذا هو ما يتصوره القاتل منطقياً، أما وقد اختلفت النتيجة عن هذا التقدير، فهذا برهان على ما قلته لكم وهو عدم إمكان التعويل على تأثير العقاقير على البشر.

فقال السير هنري: أنت تظن إذن أن السير أمبروز كان هو المقصود.

- أجل، وكانت وفاة الفتاة نتيجة خطأ؟

فقالت جين هيلر: مَن ورث السير أمبروز بعد وفاته الطبيعية؟

فقال السير هنري معقّباً على السؤال: سؤال وجيه جداً يا آنسة هيلر؛ فهو أول سؤال تعوّدنا أن نسأله في أثناء عملي في الشرطة.

وأجابت السيدة بانتري بتؤدة: كان للسير أمبروز ابن تخاصم معه منذ سنوات، ولم يكن في استطاعة السير أمبروز حرمانه من الميراث رغم عقوقه وسوء خلقه، وهكذا ورث ابنه مارتن أمبروز اللقب والأملاك، ولكن كانت هناك ممتلكات أخرى يستطيع السير أمبروز التصرف فيها، وقد تركها لوصيفته سليفيا. وأنا أعرف هذه التفصيلات لأن السير أمبروز مات بعد أقل من سنة بعد الأحداث التي ذكرتها لكم، ولم يحاول أن يُعدّ وصية جديدة بعد وفاة سيلفيا، وأعتقد أن نصيب الفتاة آل إلى الحكومة أو إلى الابن باعتباره الوريث الوحيد.

فقال السير هنري ساهماً: إذن فقد كانت النتيجة لصالح ابن لم يكون موجوداً، والفتاة ماتت بدورها. هذه نتيجة لا تشجّع على البحث في القضية. آنسة ماربل... أراك لا تنصتين! أنت في وادٍ آخر!

فقالت الآنسة ماربل: لقد كنت أفكر في قصّة السيد بدغر الصيدلي العجوز الذي كانت عنده مشرفة منزل صغيرة السنّ تُعتبر في سن أولاده، بل أحفاده، وكان لأهل بيته وأبناء وبنات إخوته وأخواته آمال كبار في ثروته، وعندما مات (ولعلكم لن تصدقوا هذا) تَبيّن أنه كان متزوجاً سرّاً بالمشرفة الشابة لمدة سنتين! نعم، لقد كان السيد بدغر فظّاً من السوقة، ولكن السير أمبروز كان شخصية ممتازة كما وصفَته لنا السيدة بانتري، ومع ذلك فالطباع البشرية كما هي في كل مكان.

ساد الصمت برهة ونظر السير هنري إلى الآنسة ماربل يتفرّس فيها طويلاً، غير أنها ردّت على نظراته بابتسامة رقيقة ونظرات يشوبها الغموض، وأخيراً قالت السيدة بانتري: والآن

ما رأيكم في قصّتي؟ ما حلّ اللغز؟ تكلّم أنت أولاً يا سير هنري؟

راح مدير الشرطة السابق يقول: سأتكلم بطريقة تحليلية لا بد منها؛ فليس هناك شيء قاطع في هذه القضية. هناك أولاً السير أمبروز، وهو لن يستفيد حتماً من موت ربيبته، ولهذا فهو مستبعَد كقاتل، وكذلك السيد كورن خبير المخطوطات والكتب القديمة لا دافع له لقتل الفتاة. فلو افترضنا بأن السير أمبروز كان الضحية المقصودة لاستيلائه مثلاً على مخطوطات نادرة من السيد كورن، فهذا لا يمكن أن يكون دافعاً للقتل، ولذا نستبعد السيد كورن أيضاً.

ننتقل إلى الآنسة مود واي، ولا دافع لديها لقتل السير أمبروز، إلاّ أن هناك دافعاً قوياً لكي تقتل سيلفيا؛ فقد كانت طامعة في خطيبها وكانت تريده لنفسها طبقاً لما قالته السيدة بانتري، وكانت مود مع سيلفيا في الحديقة في صباح ذلك اليوم، وكانت أمامها فرصة لاقتطاف أوراق النبات، نعم، لا نستطيع استبعاد مود واي بسهولة.

نتكلم الآن عن لوريمر الشاب. لقد كان له دافع القتل في كلتا الحالتين؛ فإذا تخلّص من خطيبته كان في استطاعته أن يتزوّج الأخرى، ومع ذلك يبدو أنها خطوة عنيفة لأن فسخ الخطوبة مسألة يسيرة هذه الأيام، وإذا مات السير أمبروز أمكنه الزواج من فتاة وارثة غنية بدلاً من فتاة فقيرة؟

أما السيدة كاربنتر فأقول لكم إنني أرتاب في أمرها؛ فأنا لا أرتاح إلى هذا الصنف المداهن من النساء. ثم أن نقطة تبرئة

نفسها بوجودها مع السيدة بانتري وقت اقتطاف النباتات ربما كانت خطوة مدبَّرة لإخفاء الحقيقة، وإذا كان لا بد من تلخيص الموقف في شخص واحد فإني أحصر شكوكي في مود واي، لأن الأدلة ضدّها أكثر من الأدلة ضدّ غيرها.

فقالت السيدة بانتري مشيرة إلى الطبيب: وأنت يا دكتور لويد؟

فأخذ الطبيب يقول: أظن أنك مخطئ يا سير هنري في النظرية القائلة بأن الفتاة كانت المقصودة بالقتل. أنا مقتنع أن القاتل كان ينوي التخلص من السير أمبروز، ولا أظن أن لوريمر كانت لديه دراية كافية بالموقف، وأنا أميل إلى الاقتناع بأن السيدة كاربنتر هي الطرف الجاني؛ فقد أقامت مع الأسرة مدة طويلة، وكانت تعرف كلّ شيء عن حالة السير أمبروز الصحية، وكان بإمكانها أن تدبّر الأمور بسهولة بحيث تقتطف سيلفيا تلك الأوراق من الحديقة، وقد فهمنا أنها كانت أقرب إلى الغباء. أما دافعها إلى القتل فأعترف بأنني لم أفكر فيه، ولكن ربما كان السير أمبروز قد أعدّ وصية أوصى لها فيها بشيء، ثم غيرها. هذا أقصى ما عندي من حلّ للقضية.

وعندما أشارت السيدة بانتري بإصبعها إلى جين هيلر راحت تلك تقول: لا أعرف ماذا أقول! لماذا لا تكون الفتاة سيلفيا نفسها هي الفاعلة؟ هي التي أخذت أوراق النبات إلى المطبخ، وقد سمعنا أن السير أمبروز كان يمانع في زواجها، فإذا مات نالت نصيبها من الميراث وكان لها أن تتزوج في الحال دون عقبة، وكانت تعرف حالة السير أمبروز الصحية مثل السيدة كاربنتر تماماً.

وعندئذ استقر إصبع السيدة بانتري عند الآنسة ماربل ببطء قائلة: تكلمي يا أستاذة الجيل.

فأخذت الآنسة ماربل تقول: السير هنري والدكتور لويد شرحا القضية شرحاً وافياً في الواقع، وكان الدكتور لويد سديداً جداً فيما قاله. لقد بحث الاثنان الموقف بما فيه الكفاية، وفقط لا أظن أن الدكتور لويد قدّر تماماً نقطة واحدة فيما ذكره، وهذه النقطة متعلقة بنوع المرض القلبي الذي كان يشكو منه السير أمبروز، فهل كان بوسعه وهو لم يكن طبيبه الخاص أن يحدّد نوع هذا المرض القلبي؟

فقال الدكتور لويد: لست أفهم قصدك تماماً يا آنسة ماربل.

فأجابت الآنسة ماربل: لقد افترضتَ أن السير أمبروز كان مصاباً بنوع من مرض القلب يؤثر فيه الديجيتالين تأثيراً ضاراً، أليس كذلك؟ ولكن ربما كان التأثير عكس ذلك.

فسأل الطبيب: ماذا تعنين؟!

فأجابت الآنسة ماربل: لقد قلت إن عقّار الديجيتالين كثيراً ما يُوصَف في حالات اضطرابات القلب.

- وحتى على فرض ذلك يا آنسة ماربل فأنا لم أفهم بعد إلى أين ينتهي بنا هذا الكلام!

- معناه أن عقّار الديجيتالين كان في حيازة السير أمبروز بصورة طبيعية دون أن يسأله أحد عن سبب وجوده. ما أحاول أن أقوله هو (ويؤسفني أني لا أحسن التعبير): لنفرض أنك أردتَ

أن تسمّم أيّ شخص بجرعة مميتة من الديجيتالين، ألا تكون أبسط وأسرع طريقة هي أن تعمل على تسميم الجميع بواسطة الأوراق النباتية للديجيتالين؟ لن يترتب على ذلك خطر مميت لأيّ شخص آخر بالطبع؛ فالنتائج ليست مؤكّدة كما قال الدكتور لويد، وفي هذه الحالة لن يسأل أحدٌ إذا كانت الفتاة الضحية قد تناولت فعلاً جرعة مميتة من خلاصة الديجيتالين أو شيئاً من هذا القبيل، ربما يكون قد دسّها لها في كأس عصير أو قدح قهوة أو دعاها إلى شربه باعتباره دواء مقوّياً.

– هل تقصدين أن السير أمبروز سمّم ربيبته الشابة التي كان يحبها؟

فأجابت الآنسة ماربل: هذا بالضبط مثلما حدث في حالة السيد بدغر ومشرفة بيته الشابة. لا تقولوا لي إنه من السخف أن يقع رجل في الستين في حب فتاة في العشرين، هذا يحدث كل يوم، وبوسعي أن أقول إن شيئاً كهذا في حالة رجل مثل السير أمبروز الأرستقراطي المهذّب يمكن أن يحدث بصورة مضاعَفة. هذه الحالات تتحول إلى لون من الجنون والهوَس في الواقع، فهو لم يُطِق فكرة زواجها وقد بذل كل جهده لمنع هذا الزواج، ثم فشل فاشتدّت به الغيرة إلى حدّ أنه فضّل قتل سيلفيا، ولا بدّ أنه فكر في ذلك قبلها بمدة فعمل على غرس بذور نبات قفاز الثعلب السامّ بين نبات الكزبرة المستخدَم للتوابل، وهو في هذه الحالة قد عمل على اقتطاف أوراق قفاز الثعلب بنفسه عندما جاءت المناسبة ودبّر أن تحملها الفتاة إلى المطبخ بنفسها. هذا العمل شيء فظيع، ولكن الرجال في هذه السنّ يُقدِمون على أفعال غريبة إذا كانت المسألة متعلقة بفتاة في ربيع العمر.

وعندئذ قال السير هنري: هل هذه هي الحقيقة يا سيدة بانتري؟

فأومأت السيدة بانتري برأسها إيجاباً قائلة: نعم، والحقيقة أني كنت أتصور المسألة مجرد حادث بالقضاء والقدر، ولكن بعد وفاة السير أمبروز تلقّيتُ رسالة كان قد أوصى بإرسالها إليّ، وفي تلك الرسالة اعترف لي بالحقيقة. لست أدري لماذا اختارني دون غيري لهذا الغرض، ولكن ربما لأن العلاقات بيننا كانت دائماً طيبة.

وخيم صمت ثقيل شعرت فيه السيدة بانتري وكأنها عرضة للانتقاد فأسرعت تقول: أنتم تظنون أنني خُنتُ واجب الأمانة ولكن ليس الأمر هكذا؛ فقد غيرت أسماء أبطال المأساة وأصبحَت -كما يقولون في المجلات ومقدمات الكتب- كافة الشخصيات في القصة من نسج الخيال، ولذلك لن تعرفوا الشخصيات الحقيقية بحال.

* * *

الفصل التاسع

جريمة شهر العسل

قالت جين هيلر وهي تبتسم الابتسامة الأخاذة التي طالما استحوذت على المشاعر في مسارح لندن: حدثت هذه القضية الغريبة لصديقة لي هي ممثلة شهيرة في لندن، وكانت تطوف بالأقاليم في رحلة فنية. وبينما كانت في إحدى تلك الرحلات استدعتها الشرطة ذات يوم، وكان الاستدعاء خاصّاً بسرقة وقعت في فيلاّ مجاورة للشاطئ قُبض فيها على شابّ روى للشرطة قصة غريبة، وهكذا استدعوها. وبعد أن تبيّن للشرطة أن هناك التباساً اعتذروا لها، وإن عرضوا عليها رغم ذلك أن تتعرف على الشاب المقبوض عليه، فلم تمتنع.

كان شاباً وسيماً أحمر الشعر، وقد فغر فاه عند رؤيتي... آه! أعني عند رؤية صديقتي الممثلة.

وتوقفَت جين هيلر هنيهة وقد تورّد مُحيّاها؛ فقد كانت زلة اللسان دليلاّ على أنها هي بطلة القصة، وإن كان أعضاء الندوة لم يفهموا هذا من أول الأمر. وبعد أن زال عنها الخجل والارتباك مضت تروي ما حدث لها بعد مواجهتها بالشاب قائلة: كان ذلك الشاب يُدعى لزلي فوكنر، وقد كتب مسرحيات كثيرة لم تُقبَل واحدة منها، وقال إنه أرسل إليّ مسرحية جديدة وطلب منّي قراءتها، والواقع أني لم أعرف بأمر تلك المسرحية؛ فقد تلقّيتُ مسرحيات كثيرة ولكنني لم أقرأ إلاّ القليل منها.

والظاهر أن السيد فوكنر تلقّى رسالة منّي (وإن تبيّن أن

الرسالة لم تكن منّي في الحقيقة) جاء فيها أنني قرأت المسرحية وأُعجبتُ بها، وأني أودّ أن يقابلني للمناقشة في موضوعها، على أن يكون حضوره إلى فيلا ريتربيري، فكان سرور فوكنر لا حدّ له. وعند حضوره إلى الفيلا استقبلَته الوصيفة، وحين سألها إن كانت الآنسة جين هيلر موجودة ردّت بالإيجاب وقالت إنها تنتظر حضوره، وأدخلَته إلى غرفة الجلوس.

بعد قليل ظهرت له امرأة قدّر أنها أنا بالطبع، إذ كانت تشبهني في الطول ولون الشعر وزرقة العينين، وجلس مع المرأة التي استقبلَته مرحّبة، وقالت إنها أُعجبَت بالمسرحية وتودّ أن تمثّلها. وفي أثناء الحديث جيء بالعصائر وتناول السيد فوكنر كأساً، وكالمعتاد لم يتذكر شيئاً بعد ذلك.

وعندما أفاق وجد نفسه مُلقىً على جانب الطريق في حالة إعياء شديد! قال الشاب بعد ذلك إنه لو كان متمالكاً حواسه وقتها لعاد إلى الفيلا لمعرفة حقيقة ما حدث، ولكنه كان منطمس الوعي، وسار متخبّطاً لا يعي ما حوله إلى أن قبضت عليه الشرطة بتهمة سرقة الفيلا، وتلك الفيلا ليست لي بالطبع، بل لرجل غنيّ من لندن استأجرها لسيدة، والسيدة زوجة ممثل معروف، وهي نفسها ممثلة، وأرجوكم إعفائي من ذكر الأسماء.

وتورد وجه جين هلير مرة ثانية فسارع السير هنري مدير شرطة اسكتلانديارد السابق لنجدتها قائلاً وهو يضحك ضحكة العارف الخبير: إذن سوف نسمّي الرجل الغنيّ باسم السير هيرمان كوغان، والممثل باسم كلود ليسون، والممثلة باسم ماري كير. ما رأيك يا عزيزتي؟

فأجابت جين هيلر ضاحكة: أنت بارع جداً في اختيار الأسماء. حسناً، أعود إلى القصة فأقول إن تلك الفيلا كانت مُعَدّة لكي يقضي فيها السير هيرمان عطلة نهاية الأسبوع في صحبة المرأة، وطبعاً لم تكُن زوجته تعرف هذا. كان السير هيرمان قد أهدى إلى المرأة مجموعة من الحليّ الثمينة، من بينها أحجار زمرد نادرة، وكانت الجواهر محفوظة في علبة موضوعة في الفيلا.

وقد تلقّت الشرطة مكالمة من سيدة قالت إنها الآنسة ماري كير، وأخبرت الشرطة أن سرقة وقعت في الفيلا، ووصفت لهم شاباً أحمر الشعر زار الفيلا في الصباح، وقالت إن وصيفتها ارتابت في أمر الشاب ولم تسمح له بالدخول، وبعد فترة شاهدَته يخرج عن طريق إحدى نوافذ الفيلا، وعندئذ حكى لهم الشاب قصته وأطلعهم على الخطاب المقول بإرساله منّي، وهكذا استدعتني الشرطة. وعندما رآني الشاب قال ما ذكرته لهم، وهو أني لست السيدة التي استقبلته في الفيلا.

فقال الدكتور لويد: قصة غريبة في الواقع! هل كان السيد فوكنر يعرف الآنسة كير تلك؟

فأجابت جين هيلر: لا، لم يكُن يعرفها، لكني لم أخبركم بعد بأغرب جانب في القصة. لقد ذهب رجال الشرطة إلى الفيلا بالطبع ووجدوا كل شيء كما وصفَته المخابرة الهاتفية، فالأدراج مفتوحة والجواهر مفقودة، ولكن الفيلا كلها كانت خالية من أيّ شخص! وقد مضت ساعات قبل عودة ماري كير التي قررت للشرطة أنها لم تتصل بها هاتفياً بحال، وأن هذه هي أول مرة تسمع فيها بذلك. والظاهر أنها تلقّت برقية في صباح ذلك اليوم

من مدير أحد المسارح يعرض عليها دوراً هاماً ويحدد لها موعداً؛ فسارعت بالذهاب إلى لندن لإتمام المقابلة في الموعد المحدد، وعندما وصلت وجدت أن المسألة كانت خدعة، وأنه لم تُرسَل لها أيّ برقية!

فعقّب السير هنري مدير الشرطة السابق قائلاً: حيلة معروفة لاستدراجها بعيداً عن الفيلا. ماذا عن الخدم؟

فردّت جين هيلر: حدث نفس الشيء بالنسبة للوصيفة الوحيدة الموجودة في الفيلا؛ فقد تلقّت مكالمة هاتفية من الآنسة كير -في الظاهر- طلبت فيها منها موافاتها بحقيبة يد معيَّنة في حجرة النوم، على أن تستقل أول قطار إلى لندن. وقد فعلت الوصيفة هذا وأغلقت الفيلا، ولكنها حين وصلت إلى النادي الذي حددته لها الآنسة كير في المكالمة الهاتفية طال انتظارها دون جدوى.

فقال السير هنري: بدأنا نفهم، هكذا تُركت الفيلا خالية؛ فكان الدخول إليها من إحدى النوافذ مسألة سهلة. لكنني لا أرى حتى الآن أين كان السيد فوكنر الشاب في هذا، ومن الذي اتصل بالشرطة هاتفياً إذا لم تكُن هي الآنسة كير!

أجابت جين هيلر: هذا هو ما لم يوفَّق أحد إلى معرفته.

فقال السير هنري: غريب! وهل صحيح أن الشاب هو ما قاله عن نفسه؟

- نعم، هذه الناحية من القضية سليمة؛ فقد تلقى فعلاً الرسالة المنسوبة إليّ، ولم تكن مشابِهة لخطّي بأية حال، ولكنه بالطبع لم يكُن يعرف.

فقال السير هنري: لنلخّص الموقف إذن بوضوح: السيدة والوصيفة تُستدرجان بعيداً عن الفيلا، والشاب يُستدعى إليها برسالة مزوَّرة، ولكن تأكيداً لها فأنت كنت في ذلك الأسبوع في ريفربيري لتمثيل إحدى مسرحياتك، ثم يجري تخدير الشاب وتُستدعى الشرطة وتوجّه شبهاتها إلى الشاب ذاته، وقد حدثت سرقة واقعية في الفيلا اختفت فيها الجواهر. ألم يُعثَر عليها بعد؟

فردّت جين هيلر: نعم، لم يُعثَر عليها، والواقع أن السير هيرمن حاول جهده التستّر على الحادث وكتمانه، لكنه لم يوفَّق. وأعتقد أن زوجته شرعت في إجراءات الطلاق منه بعد تلك الفضيحة.

فسأل السير هنري: وماذا تم بشأن السيد فوكنر؟

فأجابت جين: لقد أطلقَت الشرطة سراحه في النهاية؛ فهم لم يجدوا ضده أدلة كافية. ألا ترون معي أن القصة في غاية الغرابة؟

ساد الصمت والتأمل برهة بين الضيوف، وأخيراً قال الدكتور لويد: القضية في منتهى الغرابة فعلاً، لكن إذا سلّمنا بأن قصة الشاب حقيقية، فلماذا عمدت تلك المرأة المجهولة (التي انتحلت شخصية الآنسة جين هيلر) إلى استدراج ذلك الشاب المجهول وتوريطه في القضية؟ ما الذي يدعوها إلى افتعال تلك الكوميديا المدبَّرة؟

فتولّت الآنسة بانتري الردّ قائلة: أخبريني أولاً يا جين، هل حدثت في أيّ وقت مواجهة بين الشاب فوكنر وماري كير؟

فقطّبت جين حاجبيها مفكّرة برهة ثم أجابت: لا أعرف هذا تماماً. لماذا؟

فراحت السيدة بانتري تقول: لأنه إذا لم تكن هذه المواجهة قد حدثت فحلّ القضية سهل ميسور، بل أنا متأكدة أن نظريتي صحيحة؛ فليس أسهل من الادعاء بطلب الحضور إلى لندن، فمن السهل على سيدة الفيلا الاتصال بالوصيفة هاتفياً من أية محطة سكك حديدية، وعند تنفيذ الوصيفة للطلب تعود صاحبة الفيلا إليها حيث يحضر الشابّ بناءً على موعد، ويُدسّ له المخدر ويُرتَّب حدوث السرقة، ثم تبلَّغ الشرطة هاتفياً مع ذكر أوصاف السارق كبش الفداء، وعلى إثر المكالمة تعود صاحبة الفيلا إلى لندن مرة ثانية، وبعد ذلك تكون العودة إلى الضاحية بأول قطار، وتمثل دور السيدة البريئة التي انتظرَتها مفاجأة السرقة.

فسألت جين: لكن لماذا تسرق هي شخصياً جواهرها؟

فأجابت السيدة بانتري: كلهنّ يفعلن ذلك. ربما طلبت مالاً من السير هيرمن فرفض؛ فدبّرت حادثة سرقة الجواهر على أن تبيعها فيما بعد، أو ربما كانت تواجه عملية ابتزاز من شخص هدّد بإبلاغ زوجها أو زوجة السير هيرمان عن العلاقة بينهما. بل أستطيع -إذا شئتم- أن أذكر لكم عشرات الأسباب التي يمكن أن تلجأ فيها المرأة إلى ذلك. المهم أنها تضرب عصفورَين بحجر واحد، تسرق الجواهر ثم تنال مجموعة أخرى من السير هيرمن تعويضاً عن الجواهر الضائعة.

فقال الكولونيل بانتري: هذه براعة منك في الاستنتاج يا

دوللي، ولكنني أشك في مستأجر الفيلا ذاته، السير هيرمن. من السهل أن يرسل البرقية لاستدراج السيدة بعيداً، ثم يقوم بباقي المهمة دون صعوبة بمساعدة صديقة جديدة.

فنظرت جين هيلر إلى الآنسة ماربل التي كانت صامتة مقطبة ثم سألتها: ما رأيك يا آنسة ماربل؟

فردّت الآنسة ماربل: لا أدري في الواقع ماذا أقول، وإن كانت هناك احتمالات متعددة تطرح نفسها للفكر. مسألة الوصيفة مثلاً، فيلاّ مثل هذه لا يمكن أن تعمل فيها فتاة مستقيمة، ولنا إذن أن نفترض أن تلك الوصيفة لم تكُن من النوع الأمين، ونتيجة لذلك لا يبعد أنها كانت متحالفة مع اللصوص فتركت لهم باب الفيلاّ مفتوحاً وذهبت إلى لندن منتحلة حكاية المكالمة الهاتفية لدفع الشبهة. ومع ذلك فالملابسات تُشعِر بأن الحادث لم يكُن حادث لصوص عاديّين.

وتوقفت الآنسة ماربل هنيهة ثم استطردت تقول بصوت حالم: أكاد أشعر أنه حادث فيه جانب كبير من الطابع الشخصي. ماذا لو تصورنا أن الحادث وليد حزازات شخصية كأنْ تكون هناك ممثلة لم يعاملها الشاب معاملة لائقة؛ فدبرت هذا الحادث للإيقاع به؟ هذا ما يبدو لي في الوقت الحالي، وإن لم تكن النتيجة مرضية في نظري تماماً.

فالتفتت جين إلى الدكتور لويد قائلة: وأنت يا دكتور؟ ما رأيك؟

فأجاب الطبيب بعد تأمل: عندي نظرية تقول بأن الزوجة ربما كانت وراء هذا الحادث، أعني زوجة السير هيرمن، وإذا

كُنت لا أستطيع أن أبيّن بالتفصيل الأسباب التي أستند إليها في هذه الفكرة، إلاّ أنكم تقدّرون ما يمكن أن تندفع إليه الزوجة المخدوعة في مثل تلك الحالات.

وهنا هتفت الآنسة ماربل بانفعال: مرحى يا دكتور لويد، هذه براعة منك في الاستنتاج.

فقال السير هنري وقد لمعت عيناه: هل معنى ذلك أنك تؤيدين هذه النظرية يا آنسة ماربل؟

ولكن الآنسة ماربل هزّت رأسها قائلة: لا، ولا بدّ لي أن أعترف أني في حيرة من هذه القضية، وكل ما يمكنني أن أقوله الآن هو أن النساء لا بد لهنّ من التكاتف معاً ومساندة بعضهن البعض، وهذا هو المغزى الذي يمكن أن يستخلصه الإنسان من قصة الآنسة هيلر.

فقال السير هنري برصانة: أعترف أن هذا الجانب الأدبي في القضية قد فاتني، وربما أعرف المقصود منه عندما تكشف لنا الآنسة هيلر سر القضية. أنا أعلن عجزنا جميعاً عن تقديم الحلّ المنشود بعد أن أعلنَت الآنسة ماربل عجزها.

فقالت جين هيلر ساهمة: أنتم إذن تعترفون بعجزكم؟ هذا شيء طريف جداً.

ومالت الممثلة في مقعدها إلى الخلف وراحت تصقل أظافرها وهي شاردة الفكر؛ فقالت لها السيدة بانتري: تكلمي يا جين إذن، قولي لنا حل هذه القضية الغامضة التي أعجزَتنا جميعاً.

فحدّقت جين قائلة: الحل! ليست عندي أدنى فكرة.

- ماذا تقولين؟!

- كنت دائماً أعتقد أنكم جميعاً عباقرة في التفكير والاستنتاج وأن أحدكم لا بدّ أن يتمكن من عرض الحل المطلوب.

في هذه المرة تضايق الجميع، وقد عبّر السير هنري عن شعورهم قائلاً: تعنين أن لغز القضية لم يُكتشف بعد؟

فردّت جين هيلر: نعم، وهذا هو السبب في أنه خطر لي أنّ أحدكم ربما أمكنه أن يوفَّق إلى حل اللغز.

فقالت السيدة بانتري: أنت فتاة عنيدة يا عزيزتي. على كل حال أنا واثقة أن نظريتي هي الصحيحة، وإذا أمكنك أن تذكري لنا الأسماء الحقيقية لأبطال القصة لاستطعت أن أزيد نظريتي تأكيداً.

ولكن جين هزت رأسها فخفّت الآنسة ماربل إلى نجدتها قائلة: يا عزيزتي، الآنسة جين لا يمكن أن تفعل شيئاً كهذا... لا بدّ يا عزيزتي جين أنّ القصة أحزنتك جداً.

فأجابت بلهجة الصدق: مطلقاً، أظن أنها أمتعتني في الواقع.

فقالت الآنسة ماربل: لا بأس. لا بدّ أن أعود الآن إلى البيت؛ فقد تأخر الوقت، لكننا أمضينا سهرة ممتعة، وأظن أن قصة الآنسة هيلر تستحق الجائزة لغموضها على هذه الصورة غير العادية. ألا تتفقون معي؟

فأجابت جين هيلر: أنا آسفة لأني أتعبتُكم، أقصد لجهلي بحل القضية.

وخفّ الدكتور لويد إلى مساعدة الآنسة ماربل في ارتداء معطفها وتوصيلها إلى مسكنها، وحيّتهم الآنسة ماربل متمنية لكل منهم نوماً هنيئاً، ثم اقتربَت من جين هيلر فمالت نحوها وهمست في أذنها بكلام؛ فلم تتمالك الممثلة الحسناء أن انتفضت قائلة: آه!

فالتفت الجميع نحوها، ولم تلبث الآنسة ماربل أن أومأت برأسها باسمة ثم انصرفت في النهاية، وخرجت هيلر في إثرها وقالت لها السيدة بانتري: هل تذهبين إلى فراشك يا جين؟ ماذا جرى لك؟ أراك تحدّقين وكأنك رأيت شبحاً!

فأفاقت جين لنفسها ثم حيّت الرجلَين الباقيَين بابتسامتها الجذّابة وتبعت مضيفتها إلى الدور العلوي حيث رافقتها السيدة بانتري إلى غرفة نومها، وجلست جين على حافة الفراش ساهمة ثم قالت: هل تظنين أن هناك أناساً كثيرين مثل هذه العجوز الآنسة ماربل؟ لا أدري في الواقع ماذا أفعل.

وتنهدت بعمق؛ فسألتها السيدة بانتري: ماذا أصابك يا جين؟

- أنا قلقة مشغولة البال.

- لماذا؟

فأجابت جين هيلر برصانة: دوللي، هل تعرفين ما همسَت به تلك العجوز الغريبة في أذني قبل انصرافها الآن؟

- لا، ماذا قالت؟

- قالت لي: "لو كنتُ مكانك يا عزيزتي لما فعلت شيئاً كهذا. لا تضعي نفسك بأية حال تحت رحمة امرأة أخرى حتى ولو تصورت وقتئذ أنها صديقتك". أتعرفين يا دوللي أن ما قالته هذه العجوز صحيح إلى أبعد حد؟

- ربما كانت الحكمة في ذاتها صادقة، لكنني لا أدرك كيف كان تطبيقها عملياً!

- أظن أنه لا يمكن فعلاً الثقة بامرأة لأني عندئذ سأكون تحت رحمتها، وهذه مسألة فاتني التفكير فيها.

- عن أيّ امرأة تتكلمين؟

- نيتا جرين، ممثلة الدور الثاني معي.

- وما الذي تعرفه الآنسة ماربل عن ممثلتك المساعدة؟!

- أعتقد أنها فطنت إلى الحقيقة، وإن كنت لا أدري كيف فعلت هذا.

- جين، هلاّ كاشفتِني بالله عليك بما ترمين إليه من وراء هذا الكلام؟

- أعني القصة التي قلتها لكم. آه يا دوللي! إنها قصة خاصة بتلك المرأة التي اختطفت كلود مني.

أومأت السيدة بانتري برأسها وقد عادت بها الذاكرة سريعا إلى زواج جين الفاشل من كلود إيفربيري الممثل، واستطردَت جين تقول: لقد تزوجها، وكان بوسعي أن أقول له كيف سيكون

ذلك الزواج. كلود لا يعرف أنها على علاقة بالسير جوزيف سالمون وأنهما يقضيان عطلات نهاية الأسبوع في الفيلا التي حدثتُكم عنها. لقد أردت أن أفضحها، أردتُ أن يعرف كل إنسان من أيّ طينة خُلقت تلك المرأة، ووقوع مثل تلك السرقة لا بد أن يكشف العلاقة ويفضح كل شيء.

فشهقت السيدة بانتري قائلة: جين، هل دبّرت أحداث هذه القصة التي سردتِها علينا؟

فأومأت جين إيجاباً قائلة: ومن أجل هذا اخترت مسرحية «سميث» التي أقوم فيها بدور الوصيفة كما تعرفين، اخترتها لكي أتمرّن على الدور ولكي يكون زِيّ الوصيفة جاهزاً عندي، وفي الفيلا يمكن أن أفتح الباب للقادم وأقدّم له العصير في حين تدّعي مساعدتي نيتا أنها السيدة، ولن يراها الشاب بعد ذلك بالطبع. وهكذا لن يكون هناك أيّ خوف من التعرف عليها. ثم دبرنا أنا ونيتا حمله إلى الطريق بعد أن يفقد الوعي، وليس أيسر بعد ذلك من أن نسلب علبة الجواهر ونتصل بالشرطة هاتفياً ثم نعود إلى الفندق، وهكذا يُنشَر الحادث في الصحف ويعرف كلود حقيقة المرأة التي تزوجها.

جلست السيدة بانتري على حافة الفراش وهي تضرب كفّاً على كفّ قائلة: كل ذلك وأنت تحكين لنا قصة مختلفة؟! يا لك من مخادعة يا جين!

فقالت جين بهدوء: أنا ممثلة قديرة كما تعرفين ويعرف الناس كلهم، ولا أظن أن سرّي قد افتُضح أمامكم جميعاً.

فغمغمت السيدة بانتري قائلة: إلاّ الآنسة ماربل التي قالت

إنها تشتَمّ رائحة الطابع الشخصي. ولكن هل تقدّرين أيتها الطفلة أن السرقة هي السرقة.

فأجابت جين: على كل حال لم يهتدِ أحدكم إلى الحقيقة إلاّ الآنسة ماربل. هل تظنين أن هناك كثيرين مثلها؟

فأجابت السيدة بانتري: بصراحة، لا أظن.

فتنهدت جين تقول: ومع ذلك فمن الأفضل ألاّ يعرّض الإنسان نفسه للمخاطر؛ فأنا سأكون تحت رحمة نيتا بالطبع لأنها قد تنقلب عليّ أو تهددني لابتزاز المال أو أيّ شيء من هذا القبيل. لقد ساعدَتني حقاً في تدبير تفصيلات المكيدة، وعاهدتني على الإخلاص والكتمان، لكن الإنسان لا يستطيع أن يطمئنّ إلى ثبات المرأة. نعم، أظن أن الآنسة ماربل على حق، والأفضل ألاّ أخاطر بهذه العملية.

- لكنك يا عزيزتي خاطرتِ فعلاّ.

ففتحَت جين عينيها الزرقاوين على سعتهما وقالت: آه، لا! ألم تفهمي بعد؟ لم تحدث هذه القصة بعد... لقد كنتُ أجرّبها فقط.

فقالت السيدة بانتري ممتعضة: هل تعنين أنه مشروع قصّة للمستقبل لا قصة وقعت فعلاّ؟

- كان في نيّتي أن أنفذها في سبتمبر القادم، ولا أدري الآن ماذا أفعل.

فقالت السيدة بانتري بلهجة الحنق: واستطاعت الآنسة ماربل أن تخمّن الحقيقة ولم تخبرنا بها!

- أظن أنها لهذا السبب قالت ما قالته عن وجوب تكاتف النساء بعضهن مع بعض؛ لم تشأ أن تفضحني أمام الرجال من الضيوف، وهذا كرم منها في الواقع.

فقالت السيدة بانتري: لا بأس يا جين، لا بدّ أن تنفضي يديك من عملية كهذه بصفة نهائية.

- سأعمل بنصيحتك يا عزيزتي، فالآنسة ماربل ستكون لي بعد الآن بالمرصاد.

* * *

الفصل العاشر

فاجعة في المصّحة

ألحّ السير هنري مدير شرطة اسكتلانديارد السابق على الآنسة ماربل أن تكون هي صاحبة القصة الغامضة هذه السهرة، وأيّده باقي أعضاء الندوة؛ فقالت الآنسة ماربل وهي تتنهد امتثالاً: لا بأس، لقد تذكرت الآن حادثاً، بل فاجعة، قُدّر لي أن أكون طرفاً فيها، وربما تجدون حديثي عنها غير منمَّق ولا متسلسل لأني أشطّ أحياناً في السرد والسياق، ولهذا أرجو المعذرة سلفاً.

كان مسرح الفاجعة في مصحّة كيستون للمياه المعدنية حيث أمضيت هناك فترة للاستجمام، والتقيت هناك فيمن التقيت بهم بالزوجين الشابَّين ساندرز وغلاديس. كان الشاب وسيماً مرحاً إلى أبعد الحدود، ولم يكُن هناك مَن هو أشد منه تفانياً في حب زوجته، ولكني شعرت من أول نظرة أنه ينوي التخلّص منها.

فقال السير هنري وقد مال إلى الأمام باهتمام: وعلى أيّ أساس بنيتِ هذا التقدير؟

- على مجرّد الإحساس الغريزي الذي لا يخطئ. سَمِّه الخبرة، سَمّه المعرفة، سَمّه ما شئت، لكنه هكذا كان الشأن معي دائماً.

أذكر لهذه المناسبة حكاية سيدة أعرفها كانت تُزمع السفر

إلى سويسرا مع زوجها لتسلّق الجبال، وقد حذرتُها من مغبّة رحلة كهذه، ولكنها لم تستمع إليّ. وكانت النتيجة سقوطها ووفاتها واقتران زوجها بامرأة أخرى! وأمثال هذه الحوادث يعرفها الإنسان بالإحساس، ولكن لا يمكن إقامة الدليل المادّي عليها.

وفي قصة ساندرز وزوجته تصادف أن ركبنا ثلاثتنا الترام المؤلَّف من طابقين، وعند محطة النزول نهضنا معاً، وفجأة اختل توازن السيد ساندرز وسقط بكل ثقله على زوجته، وكان من أثر ذلك أن أرسلها تهوي إلى الطابق الأرضي، ولولا أن السائق كان قوي البنية وتلقّفها لكانت نهايتها في تلك السقطة.

- لكن مما لا شك فيه أن هذا مجرد حادث.

- بالطبع هو حادث؛ فليس هناك ما يجعله أكثر من حادث عرضيّ، لكن إذا عرفتم أن السيد ساندرز كان يعمل في البواخر التجارية ويمكنه الاحتفاظ بتوازنه وأنه ليس هو الذي يفقد التوازن على سطح ترام علوي إذا استطاعت عجوز مثلي أن تحتفظ بتوازنها، فلن تجادلوا أيها الأصدقاء في قيمة الإحساس والغريزة.

فقال السير هنري: سنسلّم لك يا آنسة ماربل بأنك كوّنت رأيك في طبيعة السيد ساندرز ونواياه حيال زوجته من أول نظرة، وماذا بعد؟

- ما الذي كنت أستطيع أن أفعله في تلك الظروف للحيلولة دون قتل الزوجة؟ لم يكُن بوسعي الالتجاء إلى الشرطة بغير أدلة مادية، ولم يكُن ثمة فائدة من تحذير الزوجة؛ فقد كانت

غلاديس مفتونة بزوجها. وهكذا لم يكُن أمامي سوى أن أجمع عنهما كل ما يمكن من معلومات.

وفي جلساتنا المشتركة للسمر في الفندق عرفت من غلاديس (التي كانت مُولَعة بالثرثرة) أنهما تزوجا منذ عهد غير بعيد، وأن زوجها كان ينتظر ميراثاً قريباً، وفي خلال ذلك كانت حالتهما المالية محدودة؛ فقد كانا يعيشان على إيراد الزوجة القليل الناتج من رأس المال الأصلي الذي لم تكن تريد المساس به، ولكنهما حرّرا مع عقد الزواج وصيتَين أوصى كل منهما في إحداهما بأن يؤول إلى الطرف الباقي على قيد الحياة ما يملكه الطرف الآخر، بعد أن يرث ساندرز ميراثه المنتظَر طبعاً.

وفي انتظار ذلك الأمل كانا يعيشان في ضيق، حتى إنهما استأجرا غرفة في الطابق العلوي للفندق بين غرف الخدم، ممّا يعرّض حياتهما لخطر في حالة حدوث حريق رغم وجود سلّم نجاة من الحرائق خارج نافذتهما مباشرة. وحين عرفت أن النافذة تُطلّ على الشرفة حذرتُها من الخروج إلى تلك الشرفة، وقلت لها إنّي رأيت حلماً يبرّر تلك النصيحة التي أسديتها إليها، وكانت سريعة التصديق، ولكن هذا لم يمنع من أن تنقل النصيحة إلى زوجها، حتى إنّي فاجأته وهو ينظر إليّ فيما بعد نظرات غريبة، خصوصاً بعد أن تذكّر أني كنت معهما في الترام العلوي.

كنت في أشدّ القلق على حياة تلك الزوجة الساذجة دون أن أهتدي إلى وسيلة لإنقاذها من زوجها، حتى فكرت أخيراً في خطة جريئة لاستدراجه وإيقاعه في الشرَك، وحين يحاول الاعتداء على حياتها أكشف النقاب عنه وأفضح أمره أمام زوجته، مهما تكُن الصدمة التي أسببها لها.

فسأل الدكتور لويد: وما الخطة البارعة التي تَفَتّق عنها تفكيرك يا آنسة ماربل؟

فأجابت تقول: لقد أعددت تلك الخطة فعلاً، ولكن الرجل كان أدهى وأسرع منّي؛ فهو لم ينتظر وضرب ضربته! كان يعرف أني أشك في احتمال وقوع حادث، ولهذا جعلها جريمة قتل.

سرَت شهقة يسيرة بين أعضاء الندوة، فأطبقت الآنسة ماربل شفتيها ثم قالت بصرامة: يؤسفني أنّي لم أعرض الصورة أمامكم بوضوح كافٍ، ولذلك لا بد أن أحكي بالضبط ما حدث بالترتيب.

أنا في الواقع أشعر بشدة المرارة كلما تذكرت تلك الظروف، ويخيَّل إليّ أحياناً أنه كان يجب عليّ أن أحول دون ما وقع، ولكن يد القضاء كانت غالبة ولا حيلة أمامها، وعلى أية حال فقد فعلتُ كل ما أستطيع في كل خطوة.

كنّا وقتها في الفترة التي تسبق عيد الميلاد بأربعة أيام، وكنت جالسة في غرفة الجلوس بالفندق مع الآنسة ترولوب والسيدة كاربنتر العجوز نتجاذب أطراف الحديث في الظروف السيئة التي اقترنت بوفاة بواب المصلحة ثم وفاة إحدى الوصيفات بعد أيام معدودة، الأول نتيجة نزلة شعبية والتهاب رئوي حادّ أودى بحياته، والثانية بسبب خُرّاج في الإصبع. وإذا بالسيدة كاربنتر تقول بلهجة أقرب إلى النعيق: سجّلي كلامي، ليست هذه النهاية؛ فالمثل يقول: «لا اثنين دون ثالث». لقد وجدتُ صحة هذا المثل في مناسبات كثيرة، ولذلك سوف تحدث وفاة ثالثة، ولن يطول انتظارنا... لا اثنين دون ثالث.

وبينما هي تقول تلك الكلمات الأخيرة رفعتُ رأسي فجأة عن إبرة التطريز فلاح لي السيد ساندرز واقفاً في المدخل، وكان منهمكاً في التفكير إلى حد أنه لم يفطن إلى تلك النظرة المليئة بالغدر التي لاحت لحظة في عينيه، إلاّ أنه لم يلبث أن تقدّم إلى داخل الغرفة وهو يبتسم ابتسامته العذبة وقال لنا: أنا ذاهب لشراء لوازم عيد الميلاد، فهل من خدمة أؤديها يا سيداتي؟ سأذهب إلى سوق كيستون حالاً.

توقّف دقائق يضحك ويتكلم ثم انصرف خارجاً. وفجأة تملّكني القلق فقلت على الفور: أين السيدة ترولوب؟

- لقد ذهبت إلى أسرة مورتيمر أصدقائها للعب الورق.

أراح هذا بالي مؤقّتاً، إلاّ أنّي لبثت قلقة لا أدري ماذا أفعل! وبعد نحو نصف الساعة صعدت إلى غرفتي، ولكني قابلت في طريقي على الدرَج الدكتور كولز نازلاً، فطلبت منه أن يجيء معي إلى غرفتي لاستشارته في داء الروماتيزم الذي أعاني منه، وفي خلال تلك المقابلة أشار إلى وفاة الوصيفة المسكينة وقال إن مدير الفندق لا يريد انتشار الخبر، ورجاني أن أراعى ذلك. وبالطبع لم أقل للطبيب طيّب القلب إن هذا الحدث كان مدار الحديث مدى ساعة كاملة منذ أن لفظت الفتاة المسكينة آخر أنفاسها؛ لأن مثل تلك الأمور لا تبقى طَيّ الكتمان، لكن الدكتور كولز كان يصدّق كل شيء؛ فلم يزعجني كلامه بقدر ما أزعجني ما قاله بعد ذلك. أخبرني وهو يتأهب للانصراف أن السيد ساندرز طلب منه أن يفحص زوجته لأنها تعاني في المدّة الأخيرة من اضطرابات في المعدة، وكان مبعث انزعاجي هو أن غلاديس ساندرز نفسها ذكرت لي في ذلك اليوم بالذات

أنها تتمتع بمعدة تهضم كل شيء، وأنها تحمد الله على ذلك؛ فعادت إليّ شكوكي في زوجها بصورة مضاعفة. ساندرز يدبّر شيئاً ويمهد الطريق بهذا الكلام! فماذا يدبر؟

عندما خرجتُ من غرفتي بعد ذلك كان الذي قابلته هو ساندرز نفسه نازلاً على الدرَج مرتدياً ملابس الخروج، وقد سألني مرة أخرى إن كنت في حاجة إلى شراء شيء من البلدة، فلم أجد إلا أن أردّ على مجاملته بالشكر، ثم ذهبت من فوري إلى قاعة الجلوس وطلبت الشاي. كانت الساعة وقتها الخامسة والنصف بالضبط وهو ما أتذكره جيداً.

والآن يهمني كثيراً أن أسجّل بدقة كل ما حدث بعد ذلك. كنت لا أزال في قاعة الجلوس في الساعة السابعة إلا الربع حين أقبل السيد ساندرز وكان معه رجلان، وبدا أن ثلاثتهم في حالة انتعاش من أثر تناول الشراب، وما لبث ساندرز أن ترك صديقَيه وتقدّم منّي مباشرة حيث كنت جالسة مع السيدة ترولوب وقال إنه يودّ أن يعرف رأينا في هدية عيد الميلاد التي يقدّمها لزوجته، وكانت حقيبة يد للسهرة، وقد قال لنا: الحقيقة يا سيداتي أنّي من رجال البحر ولا أعرف شيئاً عن هذه المسائل. لقد أرسلوا إليّ ثلاث حقائب لاختيار واحدة منها، وأريد رأي أهل الخبرة.

وبالطبع أبدينا استعدادنا لتقديم تلك الخدمة الإنسانية، فرجانا أن نصعد معه إلى غرفته لأن زوجته قد تعود من الخارج في أية لحظة إذا هو أحضر لنا الحقائب من الحجرة، فصعدنا معه إلى غرفته، ولن أنسى ما حدث بعد ذلك ما حييت! لقد فتح السيد ساندرز باب غرفة النوم وأضاء النور، ولست أدري من منّا شاهد ما شاهدناه قبل غيره. كانت السيدة ساندرز مُلقاة على الأرض

على وجهها، وكانت ميّتة. أسرعتُ إليها قبل غيري وركعت بجانبها وتناولت يدها وتحسّست النبض، ولكن بلا فائدة؛ فقد كان الذراع نفسه بارداً متيبّساً، وكان بجانب رأسها جورب مملوء بالرمل، وهو الأداة التي تلقّت بها الضربة القاتلة.

ووقفت السيدة ترولوب المسكينة تئنّ قرب الباب ممسكة برأسها، أما ساندرز فقد أرسل صيحة مدوّية وهو يردد: زوجتي، زوجتي!

ثم اندفع نحوها فمنعته من لمسها، إذ كنت متأكدة وقتها من أنه هو الفاعل وربما كان هناك شيء يريد أخذه أو إخفاءه. قلت له وقتها: لا يجب لمس أيّ شيء يا سيد ساندرز. اسمعي يا سيدة ترولوب، انزلي واطلبي المدير.

ولزمتُ مكاني راكعة قرب الجثة؛ فقد صمّمت على ألاّ أدع ساندرز وحده معها، ومع ذلك رأيتُني مضطرة إلى الاعتراف بأنه لو كان هذا الرجل يمثّل فتمثيله كان متقَناً رائعاً؛ فقد بدا مشدوهاً متحيراً مسلوب القلب والعقل معاً.

جاء المدير على الأثر، وبعد أن فتّش الغرفة على عجل أخرجَنا جميعاً وأغلق الباب بالمفتاح واحتفظ به معه، ثم ذهب واتصل بالشرطة هاتفياً. وخُيّل إلينا أنه قد مرّ دهر قبل وصول الشرطة. وقد علمنا فيما بعد أن خط الهاتف كان به عطب فاضطُرّ المدير إلى إرسال مندوب إلى مركز الشرطة، وفي خلال ذلك صدّعَت السيدة ترولوب رؤوسنا بنبوءتها المشؤومة عن «لا اثنين دون ثالث» التي تحققت بمثل تلك السرعة، أما ساندرز فقد سمعت أنه راح يتجوّل في الساحة الخارجية وهو يمسك برأسه يئنّ ويتوجع ويبدي كل مظاهر الحزن والتفجّع.

جاء رجال الشرطة في النهاية وصعدوا إلى الحجرة مع المدير وساندرز ثم أرسلوا يستدعونني، فصعدت إليهم. ورأيت مفتش الشرطة جالساً إلى خوان يكتب، وكان رجلاً بادي الذكاء، وقد ابتدرني بقوله: الآنسة جين ماربل؟

- نعم.

- فهمت يا سيدتي أنك كنت حاضرة حين اكتُشفت جثة القتيلة.

فأجبت بالإيجاب ووصفت له ما حدث، وأحسب أن المفتش ارتاح لهدوئي وأسلوبي في الإجابة، وبدا أنه عانى الكثير في أثناء استجواب ساندرز والسيدة ترولوب التي كانت في حالة يُرثى لها. وحين فرغتُ من أقوالي قال لي المفتش: شكراً لك يا سيدتي. والآن أرجو منك أن تنظري إلى الجثة مرة ثانية. هل وضعها هذا هو نفس الوضع الذي كانت عليه عندما دخلتِ إلى الحجرة؟ ألم يحركها أحد بأيّ طريقة؟

فشرحت له أني منعت السيد ساندرز من ذلك؛ فأومأ المفتش تقديراً قائلاً: هذا السيد يبدو في حالة حزن شديد.

فرددت عليه بقولي: أجل، يبدو هكذا.

فرمقني المفتش بنظرة حادة ولكنه قال: إذن هل يمكننا أن نقرر أن الجثة الآن على الحالة التي كانت عليها عن اكتشافها؟

فقلت له: نعم، فيما عدا القبعة.

فنظر إليّ المفتش بحدة قائلاً: ماذا تقصدين بالقبعة؟

فقلت: لقد كانت القبعة على رأس غلاديس التعسة عند

دخولنا، في حين أنها الآن مُلقاة بجانبها.

كنت أظن بالطبع أن رجال الشرطة هم الذين فعلوا ذلك، ولكن المفتش نفى ذلك نفياً قاطعاً وقال إنه لم يَجْرِ حتى ذلك الوقت لمس أو تحريك أي شيء، وما لبث أن وَقف وجعل ينظر إلى الجثة الممدَّدة مقطباً مفكراً. كانت غلاديس مرتدية ملابس الخروج، أما القبعة فكانت ملقاة قرب الرأس. وبعد أن طال وقوف المفتش في مكانه مقطّباً مفكراً قال لي وقد خطرت له فكرة: هل يمكنك يا سيدتي أن تذكري ما إذا كان هناك قرط في الأذنين، أو إذا ما كانت الضحية تضع قرطاً في العادة أصلاً؟

ومن حسن الحظ أني قوية الملاحظة، وقد تذكرت في تلك اللحظة أني لمحت بريق لآلئ أسفل حافة القبعة، وإن كنت لم أُلْقِ بالاً إلى هذا بصفة خاصّة وقتها. ولما أجبْتُ بالإيجاب على الشطر الأول للسؤال قال المفتش: إذن فهذا يحسم الأمر؛ لقد تعرضَت علبة الجواهر للسرقة. فهمت أنها لم تكن تملك شيئاً يُعتَدّ بقيمته، وقد سُرقت الخواتم من أصابعها، ولا بد أن القاتل نسي القرط فعاد لأخذه بعد اكتشاف الجريمة. لا بد أنه مجرم ثابت الأعصاب، أو ربما كان مختبئاً هنا في الغرفة طوال الوقت.

ولكنني نفيت تلك الفكرة وقلت للمفتش: لقد نظرت وقتها تحت الفراش وفتح المدير دولاب الملابس، ولا يوجد مكان غيرهما يمكن أن يختبئ فيه، وكان مكان القبعات في الدولاب مغلَقاً، ولكن فراغه المحدود تشغله الأرفف، ولا يتسع للاختباء فيه.

فأومأ المفتش مؤمّناً على كلامي قائلاً: سآخذ بكلامك يا

سيدتي، وفي هذه الحالة لا بد أن القاتل قد عاد إلى هنا. يا له من مجرم ثابت الأعصاب!

- لكن المدير أغلق الباب وأخذ المفتاح!

- وإن يكن. هناك الشرفة وسلّم الحريق، وعن طريقهما جاء اللص، ومن المؤكَّد أنكم فاجأتموه وهو يعمل فانسلّ من النافذة، وعندما خرجتم عاد.

فقلت للمفتش: هل أنت متأكد من أنه قد حدثت سرقة؟

فأجاب بجفاء: حسناً، هذا ما يبدو، أليس كذلك؟

لكن شيئاً في نبراته جعلني أرتاح؛ فقد شعرت بأنه لا يأخذ دور ساندرز كزوج متوجّع مأخذ الجد، والحقيقة أني كنت قد أقنعته بأن ذلك الرجل ساندرز سعى إلى مصرع زوجته حتى أصبح هذا الاقتناع بمثابة الفكرة المتسلطة المستحوذة على تفكيره، ومع ذلك فما يحدث في هذا العالم الغريب هو عكس ما يتوقع الإنسان ويحسب.

كنت واثقة من إدانته وأظن أن تلك الفكرة أعمت حواسّي، وكذلك جاءت النتيجة بمثابة صدمة لي؛ فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن السيد ساندرز لا يمكن أن يكون مرتكب الجريمة.

وهنا شهقت السيدة بانتري، فابتسمت الآنسة ماربل واستطردت تقول: أعرف يا عزيزتي أن هذا ما لم تكونوا تتوقعونه حين بدأت هذه القصة، لكن الحقائق هي الحقائق، وإذا ثبت للإنسان خطؤه فعليه الاعتراف بالحقيقة والمحاولة من جديد.

والآن تريدون معرفة الحقائق التي أشرتُ إليها. لقد أمضت السيدة ساندرز فترة بعد الظهر تلعب الورق عند أسرة مورتيمر وانصرفت من عندهم في نحو الساعة السادسة والربع، والمسافة من بيتهم إلى الفندق يقطعها السائر في نحو ربع الساعة، إذن فلا بد أنها وصلت في نحو السادسة والنصف. ولم يشهد أحد برؤيتها تدخل الفندق، إذن فلا بدّ أنها دخلت من الباب الجانبي وصعدت مسرعة إلى غرفتها، وهناك غيّرت ملابسها؛ فقد وُجد الرداء البنّيّ الذي ارتدته للخروج معلَّقاً في الدولاب. ويبدو أنها كانت تستعد للخروج مرة ثانية حين أصيبت بتلك الضربة القاتلة من كيس الرمل، وهو سلاح فعّال، فيبدو من هذا أن مهاجميها كانوا مختبئين في الغرفة، ويُحتمل أنهم كانوا في إحدى فتحات خزانة الملابس الكبيرة التي لم تفتحها.

وفيما يختص بتحرك السيد ساندرز فقد خرج -كما قلت- في نحو الخامسة والنصف أو بعد ذلك بقليل، وبعد أن قام ببعض المشتريات خرج في نحو السادسة وذهب إلى فندق العين الساخنة حيث التقى بصديقَين له، وهما نفساهما اللذان عاد بصحبتهما إلى فندقنا فيما بعد. وقد لعبوا البلياردو وشربوا بكثرة كما فهمت، فكانا فعلاً ملازمَين له طول الوقت من الساعة السادسة وما بعدها، وقد رافقاه إلى فندقنا ولم يتركهما إلا حين جاءني وأنا جالسة مع السيدة ترولوب -كما قلت لكم من قبل- فكان ذلك في نحو الساعة السابعة إلا الربع، وهو الوقت الذي لا بد أن زوجته كانت فيه ميّتة فعلاً.

وقد ظهرت هناك مسألة فيما بعد، إذ يبدو أنه بينما كانت السيدة ساندرز تلعب الورق عند أسرة مورتيمر طلبها من يُدعى

السيد ليتلويرث للتحدث بالهاتف، وقد لوحظ بعد المكالمة أنها منفعلة ومسرورة من شيء ما، ثم انصرفت من عند الأسرة قبل الموعد المقرَّر لانصرافها. وحين سُئل السيد ساندرز إن كان يعرف شخصاً باسم ليتلويرث نفى ذلك بتاتاً، فكان ذلك أيضاً هو الانطباع الذي بدا في مسلك السيدة ساندرز عقب المكالمة، وإن عادت منها مبتسمة مورَّدة، ومن هذا يبدو أن المتكلّم لم يذكر اسمه الحقيقي، وتلك ظاهرة مثيرة للشك في مجرى الأحداث.

على أية حال فهذا هو الموقف بالنسبة للقضية الغامضة، فهل ما حدث هو واقعة السرقة التي بدت غير محتمَلة، أم النظرية القائلة بأن السيدة ساندرز كانت تستعد للخروج لمقابلة شخص معيَّن؟ وهل جاء إليها ذلك الشخص عن طريق سلّم الحريق؟ وهل حدثت مشادّة بينهما؟ هل هاجمها غدراً؟

توقفت الآنسة ماربل عن الكلام فقال السير هنري المدير السابق للشرطة: حسنا، ما الجواب؟

فسألت: تُرى هل فكّر أحدكم في الجواب؟

فردّت السيدة بانتري: من المؤسف أن ساندرز توفرت له هذه الأدلة لتغطية تحركاته وقت وقوع الجريمة، لكن مادمتِ قد اقتنعتِ بها فقد انتهت المعضلة.

فقالت الآنسة هيلر: لماذا كانت القبعات في دولاب الملابس في خانة مغلَقة؟

فأجابت الآنسة ماربل وقد تهلّل مُحيّاها: ما أبرعك في هذا السؤال يا عزيزتي! هذا هو السؤل الذي وجّهتُه لنفسي،

وإن كان التفسير غاية في البساطة؛ كان في تلك الخانة زوجان من حذاء مطرَّز وبعض مناديل للجيب كانت الزوجة المنكودة تطرزها لزوجها كهدية لمناسبة عيد الميلاد، ولهذا أغلقَت الخانة بالمفتاح الذي وُجد في حقيبة يدها.

فسألت هيلر: إذن فليست النقطة هامة في النهاية.

فقالت الآنسة ماربل: بل هي أهم نقطة في الموضوع؛ فهي النقطة التي أفسدت على القاتل خطته.

حملق الجميع في وجه السيدة العجوز فمضت تقول: لم أفطن إلى هذه النقطة مدى يومين كاملَين، وكنت خلال ذلك أفكّر وأقدح زناد الفكر، ثم فجأة اتضح لي كل شيء، فذهبت إلى المفتش وطلبت منه أن يجرب شيئاً، ففعل ما طلبت.

- وما الذي طلبتِ منه أن يجربه؟

- طلبت منه أن يطابق تلك القبعة على رأس القتيلة المنكودة. وبالطبع لم يستطع لأن القبّعة لم تنطبق على الرأس... لأنها لم تكن قبعتها!

فحدّقت إليها السيدة بانتري قائلة: لكن القبعة كانت على رأسها في البداية!

فردّت الآنسة ماربل: لم تكُن على رأسها.

وتوقفت الآنسة ماربل هنيهة حتى تستقر كلماتها ثم استطردت تقول: لقد سلّمنا جميعاً بأن الجثة التي وجدناها كانت جثة غلاديس الزوجة المسكينة، ولكننا لم ننظر في وجهها؛ فقد كانت منكبّة على وجهها وكانت القبعة تُخفي كل شيء.

فسألَت هيلر: ولكنها ماتت قتلاً، أليس كذلك؟

- بلى، لكن فيما بعد؛ ففي اللحظة التي كنّا نبلغ فيها الشرطة هاتفياً كانت غلاديس ساندرز على قيد الحياة.

- أتقصدين أنها كانت جثة امرأة أخرى تتظاهر بأنها غلاديس؟ ولكن عندما لمستم الجثة...

فقالت الآنسة ماربل: كانت جثة امرأة ميتة، لا شك في ذلك.

فقال الكولونيل بانتري: يا للعجب! لكن لا يمكن أن تُوجَد الجثث يميناً ويساراً تحت الطلب! وماذا فعلوا بالجثة الأولى فيما بعد؟

فراحت الآنسة ماربل تقول: لقد أعاد الجثة الأولى إلى مكانها. كانت فكرة شيطانية في الواقع! وكان حديثنا في غرفة الجلوس هو الذي أوحى إليه بالفكرة، فكرة استخدام ماري الوصيفة المسكينة التي ماتت منذ فترة. تذكّروا أن غرفة ساندرز كانت بين غرف الخدم في الدور العلوي، وكانت غرفة ماري الوصيفة بعد غرفتهما بغرفتين، وكان المعروف أن الحانوتي ورجاله لن يحضروا لنقل جثتها قبل حلول الظلام؛ فاطمأنّ ساندرز إلى هذا وحمل جثة الوصيفة في الشرفة المستطيلة المشتركة (والظلام يسود في الخامسة) وألبسها ملابس زوجته ومعطفها الأحمر الكبير، وعندئذ وجد خزانة القبعات مغلَقة؛ فجاء بإحدى قبعات الوصيفة المذكورة، فما كان لأحد أن يلاحظ هذا، ثم وضع كيس الرمل بجانب الجثة وخرج بعد ذلك لإثبات تحركاته ووجوده بعيداً عن مكان الجريمة.

اتصل بزوجته هاتفيا منتحلاً اسم ليتلويرث، ولست أعرف ما قاله لها. لقد كانت إنسانة سليمة النية تصدّق كل ما يُقال لها كما ذكرت لكم من قبل، وقد طلب منها أن تنصرف من لعب الورق مبكّراً وأن تعود إلى الفندق، واتفق معها أن تقابله في حديقة الفندق قرب سلّم الحريق في الساعة السابعة، ولعله أخبرها أنه جاءها بمفاجأة تسرّها. ثم يعود إلى الفندق مع صديقَيه ويرتّب أن يكون اكتشاف الجريمة بحضوري أنا والسيدة ترولوب، بل ويتظاهر بأنه يريد تقليب الجثة في مكانها فأمنعه أنا من ذلك، ثم يجري استدعاء الشرطة ويخرج هو متصنعاً الحزن والتفجّع.

لم يسأله أحد إثبات تحركاته بعد الجريمة؛ وهكذا يقابل زوجته ويصعد معها في سلّم الحريق ويدخلان غرفتهما، ولا يبعد أنه أخبرها سلفاً عن وجود جثة في الغرفة منتحلاً قصة ما، وحين تنحني فوقها لكي تنظر يتناول كيس الرمل ويضربها الضربة القاتلة، ثم يسرع بنزع ردائها ويعلّقه ويُلبسها ملابس الجثة الأخرى. لكنه وجد القبعة لا تنطبق؛ فشعر مَاري مقصوص، في حين أن شعر غلاديس غزير ومعقود فوق الرأس فيما يشبه الكرة. وهكذا اضطُرّ إلى ترك القبّعة بجانب الجثة آملاً ألاّ يلاحظ أحد تلك المسألة. بعد ذلك حمل جثة الوصيفة عائداً بها إلى غرفتها حيث ردّها إلى حيث كانت.

وعندئذ قال دكتور لويد: هذا شيء لا يصدَّق! لقد قام بمخاطرات كثيرة وكان يمكن أن تسبقه الشرطة وتفاجئه.

فقالت الآنسة ماربل: تذكرون أن خط الهاتف كان معطوباً، ولا شكّ أن العطب كان من تدبيره؛ إذن فلم يكُن من المحتمل

أن تحضر الشرطة سريعاً. وحين وصل رجال الشرطة أمضوا بعض الوقت في مكتب مدير الفندق قبل الصعود إلى غرفة النوم، وكانت أضعف نقطة في الجريمة هي احتمال أن يلاحظ أحد الفرق بين جثّة ماتت منذ ساعتين وأخرى ماتت منذ نصف الساعة فقط، ولكنه اعتمد على أنّ الذين يكتشفون الجريمة لأول مرة لن يكونوا من الخبراء بمثل تلك المواقف.

فأومأ الدكتور لويد قائلاً: يمكن أن يُفترض أن الجريمة ارتُكبت في نحو السابعة إلا الربع أو قرب ذلك، أما الواقع فأنها قد ارتُكبت في الساعة السابعة أو بعدها بدقائق، وحين يقوم طبيب الشرطة بفحص الجثة يكون ذلك نحو الساعة السابعة والنصف، وعند ذلك لا يمكن الجزم بشيء.

فقالت الآنسة ماربل: كنت أنا التي يجب أن تعرف هذا؛ فقد تحسّستُ يد الوصيفة المسكينة فكانت باردة كالثلج، ومع ذلك فبعد فترة قصيرة تكلّم مفتش الشرطة وكأن الجريمة ارتكبت قُبَيل وصولنا، فلم أفطن وقتها إلى ذلك كله.

فقال السيرِ هنري: أعتقد أنك فطنت إلى الكثير يا آنسة ماربل. لقد حدثَت تلك القضية قبل وجودي في الخدمة ولا أذكر أني سمعت عنها. ما الذي حدث بعد ذلك؟

فقالت بإيجاز: لقد أُعدم ساندرز شنقاً، وهو يستحق هذا جزاء وفاقاً. والواقع أنني لم أندم على دوري في تقديمه للعدالة والقصاص.

* * *

الفصل الحادي عشر

الانتحار الغاض

كان السير هنري كليثرنغ ينزل ضيفاً على صديقه الكولونيل بانتري لمدة أيام معدودة، وذات صباح ذهب إلى قاعة الطعام ليتناول إفطاره، وفيما هو يهمّ بدخولها رأى السيدة بانتري تخرج بسرعة واضطراب حتى كادت تصطدم به، ولكن الكولونيل بانتري نفسه كان جالساً إلى المائدة فقال يحدّث ضيفه: طاب صباحك يا كليثرنغ، يوم جميل كما يبدو، تفضل بالقعود إلى المائدة وتناول طعامك.

وشرع السير هنري في تناول الإفطار، وبعد برهة صمت قال بانتري: يبدو أن دوللي مضطربة لسبب ما.

- هذا ما تبينته.

- أجل، لقد سمعَت هذا الصباح خبراً أزعجها، خبراً عن فتاة من فتيات القرية هي روز إيموت ابنة إيموت صاحب حانة البلوبور.

- حقاً!

- إنها فتاة حسناء، ولكنها جلبت على نفسها المتاعب... نفس القصة المعروفة. وقد كنت أتناقش مع دوللي في هذا الموضوع، ولكنها تأبى أن تكون منصفة، فهي في جانب الفتاة على طول الخط، غير أنّي أرى أن مسؤولية الفتاة لا تقلّ عن مسؤولية الشابّ الذي غرّر بها، وإن كنت في الواقع أميل إلى

ذلك المهندس الشاب سانفورد؛ فهو أقرب إلى البساطة والهدوء منه إلى شابّ عابث.

- أهذا الشاب سانفورد هو الذي غرر بالفتاة وأوقعها في المتاعب؟

- هكذا يُقال. وأنا شخصياً لا أعرف الحقيقة، والأمر كله تقوّلات وشائعات وتكهّنات كما هو الحال دائماً في البلاد الصغيرة. أنا لست مثل دوللي التي تقفز إلى النتائج بلا مقدمات ثابتة، والتي تنثر الاتهامات يميناً ويساراً. والواجب أن يكون الإنسان حريصاً شديد الحذر في تلك الحالات التي يجرى فيها التحقيق.

فسأل السير هنري: التحقيق؟!

فحملق بانتري إلى وجه هنري وقال له: ألم أخبرك؟ لقد أغرقَت الفتاة نفسها، وهذا ما حوّل الحادث إلى مأساة. والد الفتاة شخص غليظ قاس، ويبدو أنها آثرت الموت على مواجهته بالحقيقة.

- وأين أغرقت نفسها؟

- في النهر، بعد المصنع بنصف الميل. مجرى النهر هناك سريع التيار وتوجد قنطرة صغيرة للمشاة فقط، ويُقال إنها قفزت من تلك القنطرة إلى النهر.

وبعد تناول الطعام شُغل الكولونيل بقراءة صحيفته، في حين مضى السير هنري إلى الحديقة حيث تراخى في مقعد مريح وغطّى نصف وجهه بحافة قبعته، واستغرق في تأملات هادئة عن

مفارقات الحياة، إلى أن جاءت الخادمة لتخبره بأن الآنسة ماربل قد حضرت لمقابلته؛ فنهض بسرعة ومضى مع الخادمة إلى غرفة الاستقبال حيث وجدها تنتظره في هدوئها المعتاد.

وبعد أن تبادلا التحية بمودّة وحرارة قالت الآنسة ماربل: لقد جئت إليك يا سير هنري لأتحدث معك على انفراد في موضوع مؤلم... مأساة!

- أتعنين مأساة الفتاة روز ليموت؟

- نعم، هل بلغتك الأخبار؟ لقد جئتُ لهذا السبب.

وبعد تردد يسير استطردت تقول: أخشى أن تسخر منّي يا سير هنري عندما أحدّثك بالسبب الذي جئت إليك من أجله.

- أيمكن أن يسخر منك أحدٌ يا آنسة ماربل؟

- سير هنري، لم تمُت هذه الفتاة روز ليموت منتحرة كما يقولون بل ماتت مقتولة، وأنا أعرف من قتلها.

وعقدت الدهشة لسان السير هنري لحظة، ولما أفاق من دهشته قال: ما تقولينه خطير جداً يا آنسة ماربل!

فأومأت برأسها وقالت: أجل، أجل، أعرف؛ وهذا ما حفّزني للحضور إليك.

- ولكنني يا عزيزتي لست بالرجل الذي تلجئين إليه في أمر كهذا؛ فأنا كما تعلمين قد اعتزلت الخدمة وأصبحت كأيّ شخص عاديّ، فلماذا لا تذهبين إلى مركز الشرطة؟

- لا أستطيع.

- لماذا؟

- لأني... لأني لم أحصل بعدُ على ما تسمّونه «المعلومات الأكيدة».

- أتعنين أنك تعرفين الجاني عن طريق الاستنتاج فقط؟

- يمكنك أن تقول هذا إذا شئت، ولكني متأكدة من شخصية الجاني لأسباب خاصّة، ولو أنّي ذكرت هذه الأسباب لمفتش الشرطة درويت أو للمأمور ميليشيت لسخر كل منهما منّي وهزئ بي، وسيكون له العذر؛ فالأمر لا يمكن أن يُدرَك ببساطة! كل ما أرجوه منك أن تهتمّ بالموضوع وأن تشترك في التحريات بصفتك الشخصية، ولا شك أن المفتش درويت والمأمور ميليشيت سيعتبران اهتمامك بهذا الأمر شرفاً كبيراً.

فسأل السير هنري: ما المعلومات التي ستزودينني بها لأبحث القضية على ضوئها؟

- لقد خطر لي أن أكتب اسم الجاني الحقيقي في ورقة وأسلمها إليك، فإذا ثبت من تحرياتك أن صاحب هذا الاسم لا علاقة له بالجريمة فسوف أعترف لك بأنني أخطأت الظن والتقدير.

ثم توقفَت برهة قبل أن تُردِف قائلة وهي ترتعد قليلاً: ليس في الدنيا أفظع ولا أقسى من الحكم على إنسان بريء بالإعدام شنقاً.

ثم أخرجت من حقيبة يدها ورقة كتبَت عليها اسم وعنوان شخص ما وقدمتها للسير هنري الذي نظر فيها بشيء من

الدهشة، ثم قال وهو يضعها في جيبه: هذا أمر عجيب حقاً! ولكنني سأحاول أن أكون عند حسن ظنك بي.

* * *

قال السير هنري وهو جالس مع المفتش درويت في مكتب ميليشيت: أنا في الواقع أشعر بأني دخيل عليكم، ولكني لا أستطيع الآن أن أصارحكم بالسبب الذي من أجله أرجو أن تشركاني في تحرياتكما عن هذا الحادث.

فقال ميليشيت: الواقع يا سيدي أن الحادث في ذاته بسيط وواضح، وكان الرأي في أول الأمر أن الفتاة أغرقت نفسها، ولكن طبيب الصحة (وهو رجل ذكي وقوي الملاحظة) لاحظ وجود كدمات على ذراعَي الفتاة فوق المرفقَين تدلّ على أن شخصاً ما أمسكها بقوة وقذف بها من فوق القنطرة إلى الماء.

- وهل كان الأمر يحتاج قوة كبيرة لقذفها؟

- لا أظن؛ فلم يكُن ثمة مجال للمقاومة؛ فالفتاة أُخذَت على غرة، والقنطرة في ذاتها صغيرة مخصَّصة للمُشاة ومصنوعة من الخشب الزلق ولها جانب دون سياج، أي أنه كان من السهل قذفها إلى الماء بلا مقاومة.

- هل أنت متأكد تماماً أن الحادث وقع في ذلك المكان؟

- نعم؛ لقد شهد بذلك غلام في الثانية عشرة من عمره اسمه جيمي براون، كان في منطقة الغابات الواقعة في الجانب الآخر من النهر، وقد سمع صيحة على القنطرة ثم صوت سقوط

في الماء، وكان الوقت في عتمة ما بعد الغروب والرؤية غير واضحة، ولكنه استطاع أن يرى بعد ذلك جسماً أبيض يطفو على سطح الماء؛ فانطلق إلى القرية طالباً النجدة، ولكنها أقبلت بعد فوات الأوان.

- ألم يرَ الغلام أحداً على القنطرة؟

- نعم، لم يرَ أحداً؛ فقد كان الوقت بعد الغروب، وكان ثمة ضباب خفيف في الجوّ، ولكني سأسأله على كل حال إن كان رأى أحداً قبل أن يسمع الصيحة أو بعدها.

قال المفتش درويت: وعدا هذا فقد عثرنا على رسالة يا سير هنري كانت في جيب الغريقة ومكتوبة بقلم من النوع الذي يستعمله المهندسون، ورغم ابتلال الورقة فقد استطعنا أن نقرأ الكلمات المكتوبة عليها بوضوح، وهي «حسناً، ما دمتِ مصرّة على أن تقابليني فليكُن اللقاء عند القنطرة في السابعة والنصف مساء. ر.س».

واستطرد المفتش يقول: كاتب هذه الرسالة هو روبرت سانفورد، الشابّ المتّهم بالتغرير بالفتاة، وكان الغلام جيمس قد سمع الصيحة بعد السابعة والنصف بلحظات.

والتقط ميليشيت حبل الحديث فقال: هل رأيت هذا الشابّ يا سير هنري؟ إنه مهندس معماري شابّ له آراء عصرية في الهندسة المعمارية، وقد أقبل من لندن ليشيّد قصراً لآل ألنغتون، وأعتقد أن سكان القرية غير راضين عن آرائه العصرية، بل وعن سلوكه العصري أيضاً.

قال المفتش درويت: أياً كان الموضوع فقد أصبح الحادث

واضحاً كل الوضوح، فالشابّ سانفورد غرر بالفتاة حتى حملت منه، وهو يريد الآن أن يعود إلى لندن بسرعة لأنّ له فيها خطيبة عريقة الأصل، وبطبيعة الحال لم يكُن يرغب في أن يبلغ مسامع خطيبته ما حدث بينه وبين روز إيموت؛ فقرر أن يتخلص منها، فضرب لها الموعد عند القنطرة في ساعة يكون فيها الظلام مسدَلاً، وهناك انتهز فرصة خلوّ المكان من الناس وقذف بها إلى النهر.

فقال السير هنري: أعتقد أنه ليس هناك أدنى شك في أن ذلك الشاب سانفورد هو والد الجنين الذي كان في رحم المسكينة روز.

فردّ المفتش: لا شك في ذلك؛ فقد أخبرت روز والدها بالحقيقة قُبَيل موتها، وقالت له إنها أسلمت نفسها إليه حين ظنّت أنه ينوي الزواج بها.

- ألم يكُن للفتاة صديق من شبّان القرية؟

- أتعني جو إيلس؟ إنه شابّ طيب يشتغل نجاراً. ليتها ظلّت وفيّة له!

- وماذا كان وقع الخبر على جو إيليس هذا؟

- لا أحد يعرف، إنه شاب هادئ وادع متحفظ بسيط، وكان يحب روز ذلك الحب الذي يجعله يرى أن كل ما تفعله صواب، ورغم علاقتها بسانفورد فقد كان يأمل أن تعود إليه في النهاية نادمة طالبة الصفح والغفران... هذا موقفه على ما أعتقد.

فقال السير هنري: أود أن أقابله.

فردّ المفتش: سوف نراه حتماً؛ فنحن لن نهمل أيّ جانب من جوانب هذه المسألة، سوف نقابل إيموت والد الفتاة أولاً، ثم جو إيليس.

وذهبوا إلى توم إيموت في حانته البلوبور، وكان رجلاً كهلاً ضخم الجسم زائغ النظرات سوقي الطباع، وقد قال حين رآهم: سعيد برؤيتكم أيها السادة، كيف حالك يا كولونيل؟ تفضلوا بالقعود في هذه الغرفة لنكون على انفراد. هل تسمحون لي أن أقدّم شيئاً من الشراب؟ لا؟ حسناً. أظنّكم جئتم لتتحدثوا معي بشأن مأساة ابنتي المسكينة. كانت فتاة طيبة، ولكن ذلك الخنزير غرّر بها وخدعها بالحديث عن الزواج، وجلب الفضيحة على بيتي. سوف أطالب برأسه، فكما ماتت ابنتي يجب أن يموت على حبل المشنقة.

وهنا سأله المفتش درويت: هل صارحتك ابنتك بأن هذا الشاب هو الذي غرر بها؟

- نعم، وفي هذه الغرفة بالذات قالت لي إنه والد جنينها.

وسأله السير هنري قائلاً: وماذا قلت لها؟

- قلت لها؟!

وتوقف الرجل برهة كأنما فوجئ بهذا السؤال، وعندئذ قال ميليشيت: ألم تهدّدها بالطرد من بيتك مثلاً؟

- لقد غضبت وحزنت، وذلك أمر طبيعي؛ فأين الوالد

الذي لا يغضب أو يثور في حالة كهذه؟ ولكنني لم أهدّدها بالطرد بل قررت أن ألجأ إلى القانون لإرغام ذلك الشاب على إصلاح غلطته.

- متى رأيت ابنتك آخر مرة؟

- أمس في موعد الشاي.

- وكيف كان حالها؟

- كالمعتاد، لم ألاحظ عليها شيئاً غير طبيعي.

واستأذن الثلاثة وانصرفوا، وفي الطريق قال المفتش درويت: توم إيموت واحد من سفلة الناس، ولو ظلّت ابنته على قيد الحياة لعرف كيف يبتز المال من سانفورد حتى يمتصّ دمه.

* * *

كانت زيارتهم التالية لسانفورد، وقد رآه السير هنري مختلفاً كثيراً عن الصورة التي تخيّلها عنه؛ رآه شاباً طويلاً نحيلاً ذهبيّ الشعر حالم النظرات ناعم الحديث. وبعد أن قدّم ميليشيت نفسه وزميلَيه إليه تحدّث في الموضوع مباشرة فقال: أظنك تعرف أن الفتاة روز إيموت قد غرقت الليلة الماضية.

- أجل، هذا أمر محزن! أنا لم أنَم لحظة واحدة منذ ذلك الحين، بل لم أستطع أن أعمل اليوم... أشعر أني مسؤول عن كل هذا!

ثم تخلل بأصابعه شعر رأسه واستطرد يقول بصوت حزين:

لم أكُن أقصد الإساءة إليها إطلاقاً، فلم يخطر ببالي لحظة أنها ستفعل بنفسها هذا!

وأخفى وجهه بين يديه فجأة، وعندئذ سأل المفتش درويت: ماذا كنتَ تفعل ليلة أمس في الساعة السابعة والنصف؟

- في تلك الساعة كنت أتمشى.

- ألم تذهب للقاء روز؟

- لم أفعل. لقد كنت أتمشى بعيداً عن القنطرة، في الجانب الآخر في منطقة الغابات.

- إذن ما قولك في هذه الرسالة التي وجدناها في جيب الفتاة الغريقة؟

وبعد أن قرأها بصوت مسموع أردف المفتش يقول: هل تنكر أنها مكتوبة بخط يدك؟

- لا، لا أنكر؛ لقد كتبتُها فعلاً. كانت روز قد أصرّت على أن أقابلها ولم أدرِ ماذا أفعل، فكتبت لها هذه الرسالة، ولكني لم أذهب في الموعد؛ فقد رأيت أنّ خير ما أفعله هو أن أتخلف عن الذهاب؛ فقد كنت مزمعاً للرحيل إلى لندن غداً وقررتُ أن أكتب إليها من لندن وأن أقوم ببعض الترتيبات من أجلها.

- هل تعرف يا سيد سانفورد أن الفتاة كانت حاملاً، وأنها قالت إنك والد الجنين؟

فتأوه سانفورد ولم يجِب، فعاد المفتش يقول: هل كانت صادقة فيما قالت؟

فزاد سانفورد من إخفاء وجهه بين يديه وهو يقول بصوت مختنق: أعتقد ذلك.

- حسناً، هل رآك أحد وأنت تتمشّى في الغابة ليلة أمس؟

- لا أدري ولا أظن، فأنا بقدر ما أذكر لم ألتقِ بأحد.

- هذا أمر يؤسَف له.

وهنا قال الشاب بحدة وعنف: ماذا تعني؟ ما علاقة هذا كله بفتاة أغرقت نفسها؟

- الفتاة لم تُغرِق نفسها يا سيد سانفورد؛ بل أغرقها شخص ما عمداً.

ارتسمت الدهشة بوضوح على وجهه ثم غمغم بعد برهة صمت: يا إلهي! إذن...

ونهض الثلاثة لينصرفوا، وقال ميليشيت: عليك ألاّ تترك هذا المنزل بأيّ حال من الأحوال يا سيد سانفورد حتى تصدر إليك أوامر أخرى.

وفي الخارج تبادل المفتش والمأمور النظرات ثم قال المأمور: الأمر واضح، عليك أن تستصدر يا درويت أمراً من النيابة بالقبض عليه.

وهنا قال السير هنري: معذرة، لقد نسيت قفازي، سوف أحضره وألحق بكما في الطريق.

وأسرع عائداً إلى الشابّ الذي ظل في مكانه ينظر أمامه

دون أن يرى شيئاً، وقال له السير هنري: لقد عدت لأقول لك بصفة شخصية إني سأبذل جهدي لمعاونتك، ولا أستطيع الآن أن أكشف عن السبب في هذه المعاونة ولكني أحب أن تصارحني في إيجاز بكل ما حدث بينك وبين الفتاة

- كانت جميلة... جميلة جداً وجذابة ولعوباً إلى أقصى حد! ويبدو أنها وضعت عينها عليّ وقررت أن توقعني في شباكها، وأُشهِد الله أن هذا ما حدث. لم تدّخر وسعاً في مطاردتي واستدراجي، ولمّا كنت أعيش هنا في شبه عزلة فقد استجَبت لرغباتها فحدث ما حدث، وعندئذ طلبت منّي أن أتزوجها. أدركتُ أنها رسمت خطتها على ذلك الأساس فلم أدرِ ما أفعل؛ فقد كنت خاطباً فتاة من لندن، ولو أنها علمت بالأمر لفسخت الخطبة فوراً، ومِن ثَمّ قررتُ أن أتجنّب روز وأمضي إلى لندن لأرتب الأمر مع محاميّ حتى أسوّي الموضوع مع والدها بطريقة ودّية، على أن أدفع له ولها مبلغاً معيّناً كل شهر. آه، ما أشدّ غبائي! لقد كانت الخدعة واضحة، فكيف عجزت عن إدراكها؟!

- ألم تهددك الفتاة بقتل نفسها؟

- لم تفعل؛ فهي لم تكُن من النوع الذي يقتل نفسه لسبب كهذا.

- ماذا تعرف عن الشاب المدعوّ جو إيليس؟

- النجّار؟ إنه شاب قروي طيب القلب محدود الذكاء كان يحب روز بجنون.

- لعلّ الغيرة كانت تعذبه.

- لا شك أنه كان يشعر بالغيرة، ولكني أعتقد أنه من الطراز الذي يتألّم في صمت.

- حسناً، يجب أن أنصرف الآن.

* * *

لحق السير هنري بصاحبَيه، وذهب الثلاثة إلى بيت جو إيليس، وكان البيت صغيراً ونظيفاً مرتَّباً، وكانت المرأة التي فتحت لهم ممتلئة الجسم في منتصف العمر بشوشة الوجه زرقاء العينين. قال لها المفتش: طاب صباحك يا سيدة بارتليت، هل جو إيليس هنا؟

- لقد عاد منذ عشر دقائق، تفضّلوا بالدخول.

ثم صاحت: جو، هلمّ أسرع؛ بعض السادة يريدون مقابلتك.

فردّ عليها جو من المطبخ قائلاً: سوف آتي حالاً بعد أن أفرغ من غسل رأسي ويديّ.

وراح ميليشيت يحدّث المرأة قائلاً: أترَين أن جو إيليس شخص وديع يا سيدة بارتليت؟

- لا يمكن أن أجد شخصاً أحسن منه يا سيدي؛ فهو شاب رزين متّزن لا يشرب الخمر ولا يهمل عمله لحظة، ولسوف تسعد به إحدى الفتيات يوماً.

- أعتقد أنه يحب تلك الفتاة المسكينة روز إيموت، أليس كذلك؟

تنهدت السيدة بارتليت ثم قالت: لقد أسأمني حبه هذا! نعم، كان يحب الأرض التي تسير عليها في حين لم تكن هي تهتم به مقدار خردلة.

- أين يقضي جو أمسياته يا سيدة بارتليت؟

- هنا عادة يا سيدي، فهو يدرس بالمراسلة برنامجاً لمسك الدفاتر.

- وهل كان هنا ليلة أمس؟

- نعم، طبعاً يا سيدي.

وعندئذ سأل السير هنري بحدة: هل أنت واثقة من ذلك يا سيدة بارتليت؟

- كل الثقة يا سيدي.

- ألم يخرج مثلاً فيما بين الساعة السابعة والسابعة والنصف؟

- نعم، لم يخرج؛ فقد كان يُصلح خزانة المطبخ ويضع لها رفّاً جديداً، وقد استغرق ذلك العمل منه المساء كله، وقد كنت أساعده.

ونظر السير هنري إلى وجهها الباسم الواثق، ثم شعر بأُولى لواذع الشك.

بعد لحظات أقبل جو إيليس إلى الغرفة، فإذا هو شابّ طويل عريض الكتفين كبير الرأس وسيم الوجه خجول النظرات. انسحبت السيدة بارتليت إلى المطبخ، وبدأ ميليشيت الحديث

مع جو قائلاً: نحن نحقق في حادث موت الفتاة روز إيموت يا جو، أنت تعرفها طبعاً.

فقال الشاب بصوت المتردد: أجل، وكنت أرجو أن أتزوجها.

- وهل سمعتَ عن الظروف التي أحاطت بها قبل موتها؟

- نعم، خذلها شاب... وحسناً فعل؛ فلو أنها تزوّجَته لعاشت معه طيلة حياتها بائسة شقية، وكنت أتوقع أنها ستعود إليّ بعد أن يخذلها.

- رغم أنها...؟

- أنا ألتمس لها العذر؛ لقد أغراها بالوعود. نعم، لقد أخبرَتني بكل شيء، ولم يكُن هناك ما يدعوها لأن تُغرِق نفسها، فما كان الأمر يستحق تلك التضحية.

- أين كنت يا جو ليلة أمس في نحو الساعة السابعة والنصف؟

وخُيّل إلى السير هنري أنه أجاب بسرعة تثير الشك أنه كان يتوقع هذا السؤال فاستعد له بهذه الإجابة قائلاً: كنت هنا أصلح خزانة المطبخ وأصنع لها رفّاً جديداً، ويمكنك أن تسأل السيدة بارتليت.

وبعد بضعة أسئلة أخرى انصرف الرجال الثلاثة، ولكن السير هنري استأذن قبل الانصراف في الذهاب إلى المطبخ، وهناك رأى السيدة بارتليت مشغولة بإشعال الموقد، فلما رأته

رفعت إليه وجهها البشوش فقال حين رأى خزانة المطبخ وقد بدا فيها رفّ جديد وبعض أدوات النجارة لا تزال موضوعة بالقرب منها: أهذه خزانة المطبخ التي كان يصلحها جو؟

- نعم، وقد أحسن إصلاحها. إنه حقاً نجار بارع.

ولم يلاحظ السير هنري على وجه المرأة شيئاً من أمارات الخوف أو الاضطراب، وفيما هو يستدير لينصرف اصطدم بعربة أطفال فقال لها: أرجو ألاّ أكون قد أيقظت الطفل.

فضحكت السيدة بارتليت وقالت: ليس لديّ أطفال للأسف، أنا أوزّع الملابس المغسولة والمكوية على الزبائن بواسطة هذه العربة.

- آه، فهمت.

ثم أردف قائلاً بعد لحظة صمت: سيدة بارتليت، أنت تعرفين طبعاً روز إيموت، فما رأيك فيها؟

فنظرت إليه بفضول ثم قالت: كانت سيئة السلوك جداً، وأنا لا أستطيع أن أقول هذا أمام جو؛ فقد كانت تسيطر عليه بجاذبيتها حتى جعلته لا يرى أحداً غيرها، وجو للأسف من النوع الذي إذا أحب أخلص في حبه تماماً.

حين انصرف الثلاثة من البيت الصغير قال ميليشيت: أعتقد أن الأمر ازداد وضوحاً الآن.

فقال المفتش: أجل، سانفورد هو رجلنا المنشود؛ فالدلائل كلها متوفرة على إدانته. أعتقد أن الفتاة -بمساعدة أبيها- قد بدأت تبتزّ المال منه، ولما خشي الفضيحة، لأنه ليس لديه من

المال ما يكفي لكتمان الأمر، استبدّ به اليأس وقرر التخلص منها. هذا الأمر واضح جداً، أليس كذلك يا سير هنري؟

- هذا ما يلوح، ولكني لا أستطيع أن أتصور سانفورد قاتلاً!

ثم أردف قائلاً فجأة: أحب أن أرى ذلك الغلام، الغلام الذي سمع الصيحة عند القنطرة.

* * *

حين ذهبوا إلى جيمي براون وجده السير هنري غلاماً فطناً واضحاً في إجاباته، وسأله السير هنري قائلاً: فهمت أنك كنت تسير على الجانب الآخر من النهر، فهل رأيت أحداً يسير على ذلك الجانب وأنت تعبر القنطرة؟

- كان هناك شخص يسير في الغابة، وأظن أنه ذلك المهندس سانفورد.

وتبادل الرجال الثلاثة النظرات وقال السير هنري: متى كان هذا؟ قبل أن تسمع الصيحة أم بعدها؟

- قبل أن أسمعها بنحو... بنحو عشر دقائق.

- وهل رأيت أحداً آخر في الجانب الآخر من النهر؟ أعني الجانب الذي تقع عليه القرية لا الغابات.

- رأيت رجلاً يسير ببطء من بعيد ويصفر بشفتيه، وأعتقد أنه جو إيليس.

- كيف عرفت ذلك في ظلام ما بعد الغروب؟

- عرفته من صفيره؛ فجو إيليس يصفر دائماً لحناً معيَّناً هو لحن «أريد أن أعيش سعيداً»، وهو اللحن الوحيد الذي يعرفه.

فسأله السير هنري قائلاً: هل كان في طريقه إلى القنطرة؟

- لا، بل كان متجهاً نحو القرية.

وسأله ميليشيت: قلت إنك سمعت صيحة عند القنطرة ثم صوت سقوط جسم في الماء، وبعد لحظات رأيت شيئاً أبيض يطفو على سطحه فعدتَ راجعاً بسرعة وعبرت القنطرة إلى القرية لتأتي بالنجدة. ألم ترَ أحداً بالقرب من القنطرة وأنت منطلق في طريقك إلى القرية؟

- رأيت من بعيد رجلَين معهما عربة يد، ولكنني لم أدرِ هل كانا ذاهبَين إلى القرية أم خارجَين منها، ولما كان منزل السيد غايلز أقرب إليّ منهما أسرعت إليه بدلاً من الإسراع إليهما في طلب النجدة.

- لقد أحسنتَ يا ولدي، أحسنتَ التصرف بذكاء. إنك عضو في فرقة الكشافة، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

وبعد انصرافهم افترق السير هنري عن صاحبَيه وذهب إلى الآنسة ماربل وقال لها: جئتُ لأقدّم لك تقريراً عن تحرياتنا، وأخشى أن أقول إن تلك التحريات لا تتفق مع وجهة نظرك في هذا الحادث، وقد تركت ميليشيت يستعدّ لاستصدار أمر بالقبض على سانفورد، وهو يعتقد تماماً أنه على صواب.

ولما حدّثها بتفصيلات تحرياته قالت الآنسة ماربل حين أكّد لها أن جو إيليس أمضى المساء كله في البيت مع السيدة بارتليت: ولكن هذا لا يمكن أبداً؛ فمساء أمس كان مساء يوم الجمعة.

- مساء يوم الجمعة؟

- نعم، وهو المساء الذي توزّع فيه السيدة بارتليت الملابس المغسولة والمكوية على زبائنها، وهذه حقيقة يعرفها الجميع.

وتراخى السير هنري على مقعده وقد تذكر حديث الغلام جيمي عن الشاب الذي سمعه يصفر ذلك اللحن، وفجأة قال للآنسة ماربل: أعتقد أني عرفت الآن كل شيء!

* * *

بعد خمس دقائق كان جالساً في مواجهة جو إيليس في ردهة البيت الصغير يقول له بحزم: لقد كذبتَ عليّ يا جو إيليس؛ أنت لم تكُن في المطبخ تصلح الخزانة مساء أمس في السابعة والنصف بل كنت تسير على ضفة النهر نحو القنطرة قبل مقتل روز بدقائق معدودة.

ففغر جو فمه بهلع وقال: ولكنها لم تُقتَل، لقد أغرقت نفسها. ولست أنا الذي يلمس شعرة من رأسها بسوء! نعم، لست أنا!

- إذن فلماذا كذبت علينا؟

فأغضى الشاب بعينيه في اضطراب وقال: لقد كنتُ خائفاً، وقد رأتني السيدة بارتليت هناك بالقرب من القنطرة، وحين

عرفَت فيما بعد بما حدث قالت لي إنني قد أُتّهم بقتل روز إذا عرف أحد أني كنت بالقرب من القنطرة في ذلك الوقت، ولهذا اتفقَت معي على أن أزعم أني أمضيت المساء كله في المطبخ أصلح الخزانة وأكّدت لي أنها ستؤيّدني في هذا الزعم. إنها سيدة طيبة، وقد كانت كريمة معي دائماً.

نهض السير هنري دون أن يقول شيئاً، ثم مضى إلى المطبخ حيث كانت السيدة بارتليت تغسل بعض الملابس في الحوض، وبلا مقدمات قال لها: سيدة بارتليت، لقد عرفت كل شيء، ويحسن بك أن تعترفي بالحقيقة وإلاّ فسوف ترسلين جو إيليس إلى المشنقة ظلماً. هيّا، أرى في عينيك أنك لا تقبلين ذلك... حسناً، سوف أخبرك بما حدث.

ثم نظر في عينيها مباشرة وقال: لقد خرجتِ مساء أمس توزّعين الملابس المغسولة على الزبائن، وفي أثناء عودتك التقيتِ بروز إيموت على القنطرة، وتذكرت عندئذ أن جو مستعدّ لأن يصفح عنها ويتزوّجها إذا عادت إليه. لقد عاش جو معك أربعة أعوام، والواضح أنك غرقت في حبه إلى أذنيك. وكنتِ ترين أنها غير جديرة بالزواج بشاب تعتبرينه المثل الأعلى بين شباب القرية، فلم تستطيعي أن تحتملي التفكير في أنها سوف تنتزعه منك رغم كل ما حدث منها، وأنت امرأة قوية يا سيدة بارتليت، فأمسكت بالفتاة على حين غرة وألقيت بها في النهر، وبعد ذلك بلحظات التقيت بجو إيليس في طريقه إلى القنطرة.

ورآكما الغلام جيمي براون من بعيد فحسبكما رجلَين وظنّ عربة الأطفال التي توزّعين فيها الملابس المغسولة عربة يد. وأوهمتِ جو أنه قد يكون موضع الاتهام بمقتل روز وأقنعتِه

أن يزعم أنه كان معك في البيت طيلة المساء، وكنتِ في الواقع تريدين أن تُثبِتي -في الوقت نفسه- وجودك أيضاً في البيت.

حين سكت السير هنري مسحت المرأة يدها في مئزرها بهدوء ثم قالت: هذا ما حدث تماماً، ولا أدري ماذا دهاني حين رأيتها واقفة على القنطرة فظننت أنها في انتظار جو! وكدت أُجَنّ حين تخيّلتُ أنها ستعود إليه وتتزوجه. نعم، لقد أحببت جو بكل قطرة من دمي. أنا لست امرأة عجوزاً، أنا لم أكَد أبلغ الأربعين وقد عشت مع رجل سكير حتى خلصني الموت منه. لكن حين عرفت جو أدركت أن الأقدار تبتسم لي أخيراً وعشت على أمل الزواج به، ولولا تلك الفتاة لتزوجتُه فعلاً. فهل عليّ لوم إذ فقدت صوابي حين التقيت بها على القنطرة وحين قررت أن أنتهز الفرصة السانحة وأتخلص منها؟ وأياً كان الأمر فأنا في الواقع لا أدري... لا أدري كيف عرفتَ هذه الحقيقة أيها السيد! هل أنت من المشتغلين بالسحر؟

فهزّ السير هنري رأسه ببطء وقال: الواقع أني لست أنا الذي عرف هذه الحقيقة.

ثم فكر في الورقة المكتوبة والموجودة في جيبه ومكتوب فيها «السيدة بارتليت التي يسكن معها جو إيليس بالمنزل رقم اثنين شارع ميل».

ومرة أخرى كانت الآنسة ماربل على صواب.

* * *

(تمت)